مجلّة

المجمع الجزائري للّغة العربية

مجلة لغوية علمية تصدر عن المجمع الجزائري للغة العربية

العدد الرابع السنة الثانية ذو القعدة 1426– ديسمبر 2006

مجلة المجمع الجزائري للغة العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

مجلة المجمع الجزائري للغة العربية

مجلة لغوية علمية يصدرها المجمع الجزائري للغة العربية

المدير المسؤول

د. عبد الرحمن الحاج صالح

رئيس التحرير

عثمان شبوب

اللجنة العلمية

د. صالح بلعيد	د. محمد صاري
د. أحمد حساني	د. التواتي بن التواتي
د. بشير إبرير	د. عبد الجليل مرتاض

عنوان المراسلة : 06 شارع العقيد بوقرة ـ الأبيار ـ الجزائر

البريد الالكتروني : aala@wissal.dz

هاتف : 213.21.23.07.90 - الفاكس : 213 21.23.90

* المقالات التي ترد إلى المجلة لا تعاد إلى أصحابها نشرت أو لم تنشر

* كل باحث مسؤول عن آرائه

محتويات العدد

1 ـ تحديث أصول البحث في التراث اللغوي العلمي العربي

أ.د عبد الرحمن الحاج صالح 9

2 ـ الذخيرة العربية كمشروع علمي حضاري

د. بشير ابرير 35

3 ـ حوسبة المجمع العربي

د. أحمد حابس 51

4 ـ تأثير الثقافة المشرقية في المغرب العربي ودور المشارقة في نشر اللغة العربية في الجزائر

أ.د.عبد المالك مرتاض 71

5 ـ الخليل بن أحمد والقراءات القرآنية

د. التواتي بن التواتي 107

6 ـ مميزات اللغة العربية

د. فؤاد حسنين 131

7 ـ مفهوم لغة الإشهار في وسائل الاعلام

أ . حفيظة يحياوي 165

تحديث أصول البحث فى التراث اللغوى العلمى العربى[1]

للأستاذ الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح

رئيس المجمع الجزائرى للغة العربية

إن البحوث العلمية التي تتطرق إلى ما تركه العلماء العرب القدامى في علوم العربية والعلوم اللسانية عامة لفى حاجة مسيسة، فى نظرنا، إلى شىء كثير من التجديد والتطوير وهذه سنة الله فى أرضه. وهذا يشمل كل جوانب البحث ولا يقتصر على منهجيته فقط. وأحوج هذه الجوانب إلى ذلك هى، فى نظرنا، الأصول التى تعتمد عليها هذه المنهجية وكذلك النظرة إلى هذا التراث وكيفية تقويمه.

وأصل الأصول عندنا هو الاستقلال المطلق للفكر وعدم الخضوع لنظرة الغير والامتناع عن التمسك بعقيدة سابقة غير الأصول العقلية والعلمية المجمع على صحتها فى كل زمان وفى كل مكان. وهذا

1 ـ ألقي هذا البحث في المؤتمر السنوي لمجمع اللغة العربية بالقاهرة في مارس 2005. ورأينا أن ننشره في مجلة المجمع الجزائري لأهميته بالنسبة للتراث اللغوي العربي.

الخضوع هو التقليد ليس إلا، وهو سلوك الجاهل أو الشبيه بالمثقف الذي لا يقدر على الاجتهاد. وهناك نوع من التقليد قد يخفى على الكثير وهو أبغض أشكاله: فقد ينخدع الباحث بالنظريات الطارئة (وهذا كان فى القديم وما يزال في عصرنا هذا مستفحلاً) لاستهتار الناس وانبهارهم بها وهى مثل الموضة لا يطول هذا الولوع بها حتى يزول. وفى اللسانيات التاريخية نذكر من ذلك نظرية داروين المطبّقة على دراسة اللغات: والتي ازدهرت فى القرن التاسع عشر فى أوربا ثم اضمحلّت (وكان ما يزال لها صدى عندنا معشر الباحثين العرب منذ عهد قريب). ثم جاءت موضة البنوية: يتقعر ويتشدق الباحث عند النطق بهذه الكلمة (ولاسيما باللغات الأجنبية). ثم ظهرت نظرية قريبة جدا من نظريات العرب اللغوية وهي نظرية تشومسكى وإن لم تَزُلْ برمتها فلأن صاحبها طوّرها وحوّلها إلى ما هو أرقى -ولا يزال- وهذا سلوك لا عيب فيه بل هو المطلوب إنما العيب فى اتّباع تشومسكى بكيفية عمياء ودون الإتيان بشىء آخر غير هذا الذى قاله هذا اللغوي أو بشىء يزيد عليه. فهذا هو الذى ينقصنا وليس من الضرورى عندنا أن يكون ذلك على شكل نظرية جديدة تمام الجدة بل يكفى أن يأتى الباحث بما يُثْرى النظرية البنوية أو التشومسكية أو يطورها أو يصلحها حتى تصبح أكثر شمولية فتنطبق على عدد أكبر من الظواهر. فهذا إبداع.

وكذلك هى النظريات الخاصة بالتراث اللغوى. فقد ظهر من ذلك فى زماننا وخاصة عند المستشرقين آراء -راسخة فى الأذهان فى

الغالب- مثل فكرة اللغة المشتركة الأدبية فيما يخص العربية الفصحى وذلك فى مقابل اللهجات وفكرة جهل النحاة أو تجاهلهم بهـذا الذى يسمّونه حقيقة تاريخيـة ولا تقبل الجـدال عندهم ! أو كفكرة نشأة النحو العربى بتأثير المنطق اليونانى وتأسيس كل المفاهيم النحوية العربية على مفاهيم هذا المنطق [1].

ومن ذلك جعـل بعضـهم ما جاء فى النظرية اللغوية التى ورثها الغربيون من الحضارة اليونانية حقيقة لا جدال فيها وذلك مثل التقسيم للمصوتات إلى قصيـرة وطويلـة بالاعتماد فـى ذلك على جانب واحد وهو الجانب الصوتى الفيزيائـى (الأكـوستيكى) وعدم الالتفات إلى الجانب الآخر الذى لا يقل أهمية وهو الجانب الحركـى المُحْدِث للصوت ولتسلسل الأصوات ومن ثم أيضا مفهوم المقطع. وقد بيّن العلماء بتجارب مخبرية أن لا مقطع فى درج الكلام ولا يتحقق إلا بين وقفتين وهذا يؤكد النظرية الحركية العربية. وسلوك بعض الباحثيـن فى ذلك هو أن ينظروا فيما تركه العلماء العرب فإذا لم يوافـق ما جاء فى الصوتيات التقليدية الغربية مثـل مفهومى الحركة والسكون ومفهوم حرف المدّ حكموا عليه بالضعـف والسخافـة وعدم القيمـة العلمية[2].

1 ـ أنظر مقالنا: النحو العربي ومنطق أرسطو. مجلة كلية الآداب بالجزائر، 1965.

2 ـ وللأب هنري فلايش مثل هذا السلوك، أنظر ما كتبه في بحثه:

H. Fleish , La conception phonétique des Arabes d'après le Sirr al - Sinā ' a al - I ' rāb d'Ibn Ğinnī, Z. D. M. G. 108 (1958),74 - 105.

وتجاهلوا أن العلماء الغربيين وجّهوا لهذه الصوتيات الموروثة الكثير من الانتقادات الموضوعية بنوها على التجارب المخبرية وتعاونوا فى ذلك مع المهندسين المتخصصين فى هندسة اللغة الحديثة وأتوا بالدليل القاطع على صحة ما اختبروه فإذا قبلنا هذه الأشياء التى أتى بها غيرنا فلسنا بذلك من المقلدين. إنما التقليد هو تقبل آراء الغير لا الحقائق ثم تقبل ذلك بدون أى تمحيص.

وأما فى ميدان التراكيب وبنية الجملة فقد لاحظوا أن العرب يفرقون بين تركيبين: المبتدأ والخبر والفعل والفاعل وليس لهم مفهوم واحد يجمعهما وهو عندهم الـ Sujet والـ Prédicat (على الرغم من وجود المسند والمسند إليه عند العرب) فيحكمون على النحاة بالعجز عن هذا الضرب من التجريد وعدم قدرتهم على تصور المبتدأ والفاعل كشىء واحد وهو الـ Sujet [1] ونسوا مع ذلك أن هذا التحليل هو فى أصله **دَلالِي منطقى** وأن التحليل العربى مبنى على **بنية اللفظ** وأنهم جمعوا بين المبتدأ والفاعل فى مفهوم المعمول الأول[2] من حيث البنية ولهم تحليل آخر على المعنى والافادة وهو المسند والمسند إليه.

---

1 - Id., Etudes sur le verbe arabe, dans Mélanges L. Massignon, II 153-5.

2 ـ أنظر كتابنا: علم اللسان العربي وعلم اللسان العام. ونحن لا ننكر ما للعلوم اللسانية الحديثة من قيمة فهي عظيمة حقا وننوه بما أتى به الغربيون إلا أن التقليد الأعمى لايفيدهم ولا يفيدنا في شيء.

ومن جهة أخرى هناك أفكار شاعت بين المثقفين العرب أخذوها من قول قاله شخص واحد فيما مضى بل قد يكون روى عنه فى الغالب، وذلك مثل القول بامتناع اللغويين القدامى وخاصة أبا عمرو بن العلاء من الاستشهاد بشعر الاسلاميين[1]. ومن ثم ما روّجه صاحب الأغانى من استهتار أبى عمرو بالقديم وحده ومن ثم أيضا ما استنتجه من ميل النحويين بالأخذ بالشعر الجاهلي. ثم فكرة اعتماد هؤلاء النحاة على البدو فقط ونبذ كل كلام من حضرى ولو كان فى العصر الأموى (مثل الأخطل وعمر بن أبى ربيعة وكل من يسميهم ابن سلام بالقرويين من الشعراء). والقول بأن النحو بُنى استنباطه كله على الشعر مع وجود الآلاف من الشواهد النثرية فى كتاب سيبويه أوردها كما سمعها هو أو شيوخه أو على شكل مُثُل تركيبية إذا كانت مطردة في القياس والاستعمال فلو كانت قواعده مستنبطة من الشعر فقط لما ذكر كل هذه التراكيب النثرية لَمثَّل لقاعدته بالشعر فقط إذْ ما دَخْل هذه التراكيب في نحو بُنِيَ على الشعر؟

وأما الأصول التي ينبغي، أن تُعتمد في مثل هذه البحوث وبالنسبة للتراث اللغوي العلمي العربي فهي تخص قبل كل شئ أصول البحث عن المصادر الموثوقة والتي لها الأولوية على غيرها في الاعتماد عليها من جهة وأصول البحث عن معاني الألفاظ التي قصدها القائل في نص

1 ـ أنظر كتابنا: السماع اللغوي العلمي عند العرب، الجزائر 2005 وسنردّ على ذلك فيما يلي.

معين من جهة أخرى. وعدم اعتماد الباحث على مثل هذه الأصول يكون سَبَبًا في نشوء أفكار وآراء خاطئة وترويجها تنطلق من قول مشبوه وتبني على مصدر غير موثوق وعلى رواية مريبة وغالبا ماينفرد بنقلها شخص واحد. وهاهي ذي الأصول التى ينبغي، في نظرنا، أن تعتمد[1]:

1- ضرورة الرجوع إلى ماقاله القائل هو نفسه أي إلى نص قوله والامتناع البات من الاكتفاء في ذلك بما روى عنه مع وجود النص.

فإن لَمْ يوجد فلا بد من الاعتماد على ما رواه عنه أصحابه الذين سمعوا منه مباشرة. وإن لم يوجد النص الأصلي كما رووه عنه أصحابه فلا مناص من مقابلة ما رُوي عنه بما تركه القائل من آثار وما روى عنه أصحابه من أفعال له شهدوها عيانا فقد يمكن أن تتناقض هذه الأفعال بما رُوي عنه بعدهم.

وإن اعتمد على الرواية غير الصادرة من تلاميذه فتكون كل النظريات المبنية على هذه الرواية من محض التخمين والافتراض الذي لا يؤيده شئ من الوثائق. وعندئذ فلا يكون هناك وازع ناجع لتفادي الافتراء وكل انواع الأساطير وهذا هو الأصل الأساسي عند كل باحث موضوعي.

2- ضرورة الرجوع إلى أكثر من مصدر فى كل ما يُروى ويجب أن تنتمي كلها إلى عصر واحد ولم تكن بعضها منقولة عن بعض كما يحصل ذلك غالبا إذا توالت في الزمان.

---

1 ـ تعرضنا لبعض هذه الأصول في كتابنا: السماع اللغوي العلمي عند العرب .

وهذا الذي يقول عنه علماؤنا أنه "سُمع من أكثر من وجه" في كل انواع السماع (حديث، قراءات، لغة،..الخ) هو أهم مبدأ في علم التاريخ فى الوقت الحاضر. وكان له دور كبير قديما في التمييز بين ما كان يُروى من الأحاديث خاصة في زمان الإمامين البخاري ومسلم.وترفض كل رواية، بالتالي، ينفرد بـها راوٍ واحد ولاسيما إذا خالف بها الروايات الأخرى أو كان فيها طعنٌ يمس عِرْض القائل أو يحط من قيمته العلمية رواية ودراية. ونحن لا ندخل فى ذلك كتب الجرح والتعديل لأنها بنيت أقوالهم فيها على أصول موضوعية (إلا ما شذ منهم فى بعضها).

3- ضرورة التمييز بين المصـادر (ونقصد هنا كل مكتوب) واختيار ما وقـع **عليـه الإجماع على توثيقه** والتحفظ من كل مصدر ثبت أنه يحتوي على الصحيح وغير الصحيح من الأخبار. ثم تَرْك كل مصدر اتهم صاحبه بالكذب أو بالتساهل في قبول كل ما يُرْوى. وهذا مبدأ عَمِل به أهل الحديث بالنسبة للرجال.

- وفيما يخص الفهم لما قصده صاحب النص:

4 - ضرورة تقديم النظر في النص الأصلي على التأويلات والشروح التي تلت هذا النص. ونعني بذلك أنه لابد من الفحص في النص الأصلي بطريقة علمية معينة سنتطرق إليها فيما يلي قبل أي لجوء إلى ما جاء بعد صدور هذا النص من تأويل المتأولين وما قاله الشراح قد يكون في ذلك خطر التأثر بأقوالهم إلى حد إسقاط هذه الأقـوال على ما في النص فيكون هذا الذي نقل من الشراح إذا كانوا أساؤوا الفهم

كالحجاب المانع من الفهم الصحيح وبصفة عامة يكون المانع تماما من الفحص المباشر للنصّ والبحث عن المعاني المقصودة بالفعل.

5 - **ضرورة التصفح الكامل للنص مهما بلغ طوله** قصد الحصر للألفاظ الهامَّة التى يكثر ورودها **مع جميع سياقاتها التي وردت فيها**. ولهذا علاقة أولا بمبدأ الرجوع إلى كلام المعنيّ بالأمر هو نفسه وعلاقة بفهم النص بالاعتماد على النص نفسه (وقديما قالوا : "لا يفسر القرآن إلا القرآن").

6 - **اللجوء بعد هذا التصفح إلى طريقة خاصة لاكتشاف المعانى المقصودة في النص** وسيأتي وصفها بالتفصيل.

7- **الاعتداد المستمر بعامل الزمان وتأثيره في تحول التصور العلمي والمفاهيم** وبالتالي تحول معاني المصطلحات من عصر إلى آخر.

8- **ضرورة النظر في جميع النظريات اللسانية الحديثة وتَمْحيصها** واعتبارها قبل كل شيء كنظريات لا كحقائق مسلَّمة وكذلك هو القول على مبادئها ومناهج البحث التي تسير عليها.

وهاهي ذي بعض التوضيحات وبعض الأمثلة التى نرجو أن تتبيّن بها ما نقصده من هذه الأصول:

الأصول الثلاثة الأولى أساسها التفضيل المطلق للأصل على فروعه أو للأصيل على نُسَخِه حتى ولو كانت كلها موثوقة وهذا كتفضيل الرجوع إلى الواقع والمشاهدة والتجربة بالحواس على الافتراض والتخمين وإن كانا ضروريين في كل بحث إلا أنه يلازمهما بالضرورة

العيان والاختبار وكما يقول علماؤنا قديما : "ليس من المعقول أن نتتبع آثار الشيء مع إمكان معاينته".

فعلى الرغم من كل هذا فقلَّمَنْ يرجع إلى النصوص الأصلية في زماننا وأقل من ذلك من لا يخشى أن يتصفحها ورقة ورقة وسطرا سطرا ويصبر على مشقة التصفح الواسع الكامل للنصوص.

فالتراث اللغوى العلمى "يقرأه" الباحثون فى عصرنا ويبحث عنه غالبا فى كتب الطبقات وكتاب الأغانى وسائر الكتب التي ألّفت للتسلية أو الكتب التي لا يخشى أصحابها أن يُصرِّحوا فيها أنْ لا عُهْدة لهم فيما يَرْوُونه. فيتناسى ذلك الباحث ولا يخشى هو بدوره أن يستشهد بما جاء فيها كما قال بعض المتساهلين قديما: "كيف نردّها وقد رُويت" !

فالخطر في هذا بالنسبة للباحث هو كما قال الجاحظ عن النظام أنْ: " يَظُنَّ الظنّ ويقيس عليه ناسيا أن بدء أمره كان ظنا"

ومثال آخر هو الاعتقاد بأن اللغويين العرب الأولين لا يعتدُّون إلا بالقديم وأنهم كانوا يرفضون ما كان يصدر فى زمانهم عن الشعراء الاسلاميين مثل الفرزدق وجرير والأخطل وذي الرُّمَّة وغيرهم. وامتناعهم من جهة أخرى من أخذ اللغة عن أهل الحضر في ذلك الزمان الغابر والقول بالتالي أن كل ما جمعوه من الشعر واللغة مصدره أهل البدو إذ لم يسمعوا إلا منهم. وكل هذا بنى على رواية شخص واحد وعلى التخليط بين العصور.

فأما الرواية فهي ماروى الجاحظ عن الأصمعي في كتابه البيان (32/,1): "جلستُ الى أبى عمرو بن العلاء عشر حجج ما سمعته يحتَجُّ ببيت إسلاميّ وروى عنه مرة: " لقد كثر هذا المُحْدَث وحسن حتى لقد هممتُ أن آمر فتياننا بروايته، ويعني شعر الفرزدق وجرير وأَشْباههما". فألْهَمَ هذا الكلام صاحبَ الأغاني فحاك على ذلك حكايات ونسب كلاما لابي عمرو والأصمعي لم يقله أحد منهما وذلك مثل: " لو أدرك الأخطل يوما واحدا من الجاهلية ما قدّمت عليه أحداً" (الأغاني8, 285). ونقل ابن رشيق كلام الجاحظ بهذه العبارة: " لقد حسن هذا المولّد حتى هممت أن آمر صبياننا بروايته ويعني بذلك شعر الفرزدق وجرير وغيرهما من الإسلاميين وأضاف: "وكان لا يعدّ شعرا إلا للمتقدمين وهذا مذهب أبي عمرو وأصحابه كالأصمعي وابن الأعرابي" وكل هذا وهم.

واشتهر في زماننا عن الفارابي أن اللغويين لم يأخذوا إلا من قيس وتميم وأسد وطئ ثم من هذيل في معظم ما أخذوه (كتاب الحروف، 147).

فأخذ كل ذلك الكثير من معاصرينا وبنوا عليه النظرية المشهورة اليوم: " لم يبن النحو العربي إلا على ما أخذوه من البدو ومن عدد محدود من القبائل".

فأما أبو عمرو بن العلاء فقد استشهد بالفعل بشعر الاسلاميين وذكر ذلك الأصمعى نفسه! فإذا رجعنا إلى نصوص الأصمعى الأصلية،وقد وصل إلينا الكثير من هذا، اتّضح لنا ذلك .جاء في كتاب الإبل له (ص

86 في نشر هَفْنَر) "حدثني أبو عمرو بن العلاء قال: سمعت جندل بن الراعي[1] ينشد بلال بن أبي بردة:

نَعُوسُ إذا دَرَّتْ جَرُوزُ إذا غَدَتْ بُوَيْزِلُ عام أو سَدِيسُ كبازلِ

وقال أيضا: "أنشدنا أبو عمرو بن العلاء (لدرّاج بن زُرعة الضّبابي)

إذا أَمُّ سِرياحٍ غَدَت في ظعائن جوالسِ تَجْدٍ فاضَتْ العينُ تَدمَعُ

(نفس المصدر، 101 وفي اشتقاق ابن دريد، 120-121)

وقال أيضا: وأنشدنا أبو عمرو هذا البيت لمالِك بن الحارث الهُذَلِي[2] احتجاجًا في القَرْء أنه الوقت:

كرِهتُ العَقْرَ بَني شُلَيْلٍ[3] إذا هَبَّتْ لِقارِئها الرياحُ

(ابن السكّيت في كتاب الأضداد، 56)".

وقال أيضا: "سمعت أبا عمرو يقول: سقفت الباب بمعنى سقفت عينيه **وأنشد لرُؤْبة**.

وما أشتلاهما سقفة للمنصفق (فعلت وأفعلت لأبي حاتم، 116).

وقال أبو عبيدة: سُئل أبو عمرو بن العلاء: أيَّ قَيْسٍ أذكر؟ فأنشد **للفرودق**:

ومن يكُ عن قيس بن عيلان سائلا ففي غطفان عزُّ قيسٍ وخيرُها

هم حاملوها والفوارس مِنْهم وفاتِكُهم منها ومنها بدورُها

(الديباج، 142).

---

1 ـ الطهوى من تميم. اشتهر بهجائه للراعي.

2 ـ بن قطن بن الاعرف. قتله عبد الملك بن مروان وهو في السجن.

3 ـ هو أخو أسامة من الحارث الهذلي.

كما كان أبو عمرو صديقا لذى الرمة وكان يستنشده شعره (أنظر الديوان: القصيدة 1, 34 ونبَّه على ذلك محققه) ويروى ابن عساكر أن أبا عمرو روى ديوانه (14, 87).

وروى أبو عبيدة عن أبي عمرو أنه قال: " كان جرير أشبه بالأعشى منه بامرئ القيس ومن شبَّه **فحول الإسلام** بفحول الجاهلية شبه جريرًا بالأعشى" (الديباج،5). ومثل هذا الكلام المروى مباشرة من أبى عمرو ومن ثقة وهو تلميذه لا يحتمل أي تأويل !

وهناك أمثلة أخرى كثيرة لاستشهاد أبى عمرو بشعر معاصريه وبأقوالهم ورواياتهم. قال ابن السكّيت: " قال الأصمعى: أخبرنى عيسى بن عمر التثقى وابو عمرو ابن العلاء قال: سمعت ذا الرُّمَّة يقول: قاتل الله أَمة بنى فلان ما أفصحها: ! قلت: كيف كان المطر عندكم؟ فقالت: غِثْنا بما شئنا" (إصلاح، 265).

وأما ما قاله الفارابى فيما يخص اقتصار اللغويين فى الأخذ عن البدو وعن خمس قبائل فقط فهو تعسف منه وسوء فهم(وهو الفيلسوف لا اللغوي) لما سمعه عن أستاذه (وتلميذه فى الوقت نفسه[1]) أبى بكر بن السراج. فما استشهد به النحاة **يمثل فى الواقع كل القبائل العربية تقريبا** إلا أن بعض ذلك يرجع كله الى الجاهلية وصدر الإسلام إلى غاية أبى عمرو وبعض الآخر يرجع إلى ما بعد أبى عمرو إلى غاية وفاة سيبويه

1 ـ أنظر في ذلك ابن أبي أصبيعة في عيون الأبناء،136، 2.

وفى كلا العصرين أخذ اللغويون من الحضر ومن البدو بدليل وجود مثل شعراء مكة والمدينة وأكثر الشعراء الأمويين (كابن هَرْمة ودُكَيْن وغيرهما وهما من أهل الحضر. ولم يتوقف الأخذ عن الحضر إلا فى بداية القرن الثالث. وتُرِك مثل بشار وأبى نواس لعدم اكتسابهما العربية كلغة المنشأ هى وحدها. وكل ما وصل إلينا من الشعر من الجاهلية إلى غاية نهاية القرن الثانى باستثناء غير السليقيين فهو يشمل كل القبائل إلا القليل.

فالتحقيق لقول مثل قول الفارابى الذى سببُه التخليط بين العصور، يتحصل بالرجوع إلى النصوص الاصلية الموثوقة أى إلى ما وصل إلينا بالفعل مما جمعه اللغويون من كلام العرب ومن الشعر وفى جميع الأحوال يجب الرجوع الى تلك النصوص هى بذاتها ولا يكتفى بذكر ما يروى عن محتوى تلك النصوص.

ثم هناك دليل واضح على التخليط بين العصور هو ما جاء في كتاب الأغاني من جهة ومن جهة أخرى ما جاء في هذا الذي يسمونه بكتاب "فحولة الشعراء" -(وهو من وضع المرزباني نفسه) هو عدم اكتراث صاحبيهما بما كان يريده اللغويون من كلمة "مولّد" (في زمان ابن السكيت وأبي حاتم وكذلك هو عند الجاحظ)وهو المقابل للفصيح السليقي فيما يخص الفصحى كما سنراه في هذه الدراسة وإعطاؤه لهذا اللفظ معنى المُحدث في مقابل القديم أيا كان. فهذا لا يمكن أن يرتكبه مثل الأصمعي ولا أبو حاتم أبدًا. ثم كيف يسأل أبو حاتم عمّن

هو أشعر: بشـار أم مروان ويجيبه الأصمعي بتفضيله بشارًا! (47)وهذا يتفق مع ما جاء في الأغاني في ثناء الأصمعي على بشار وجعله "خاتمة الشعراء"! (الأغاني 3, 143, 150). وكيف يقول هذا الأصمعي وهو المعروف بتشدّده في قبول المعطيات من فصحاء العرب؟ وتخيّره للفصيح السليقي؟

ثم في الأقوال التي نُسبت إلى الأصمعي في "فحولة الشعراء" من جهة وفي البيان للجاحظ من جهة أخرى تناقض صارخ: فمن جهة يقول عن عمر بن أبي ربيعة أنه سمع أبا عمرو بن العلاء يحتج في النحو بشعره ويقول إنه حجة (56–57) ومن جهة أخرى يصرّح أنه لم يسمع أبدا أبا عمرو يحتجّ ببيت إسلامي.

ومثال آخر من ذلك: ما جاء في الكتاب المزعوم الملقّب"بفحولة الشعراء": "حدّثنا الأصمعي قال: الكميت بن زيد ليس بحجة لأنه مولّد وكذلك الطرماح"(39–40) و"ليس الكميت بحجة لأنه من أهل الكوفة فتعلم الغريب وروى الشعر وكان معلما فلا يكون مثل أهل البدو..." (46).

ولا يصعب على أي باحث أن يتبيّن أن هذا القول هو مجرد افتراء على الأصمعي لأن هذا الكتاب قبل كل شيء أكثره مأخوذ من كتـاب الموشح للمرزباني وقد جمع شخص مجهول في وقت جد متأخر(بعد تأليـف خزانة الأدب)كل الأقـوال الدائرة حول الفحول ومن هو فصيح من الشعراء مما هو منسـوب في أكثره إلى ابن دريد عن أبي حاتم عن

الأصمعي. هذا ولنا نصّ صريح لابن دريد قد يزيد تصريحاته شبهة وهو قوله عند روايته لما قيل عن "أبرق وأرعد" والاستشهاد على ذلك فقال الأصمعي: "الكميت جُرْمُقاني من أهل الشام ولم يلتفت إليه"(الاشتقاق،447) وقال في الجمهرة: "فقال: الكميت جرمقاني من أهل الموصل (!) وكأنه لم يره شيئًا. "(مادة رعد) وقال ذلك أيضا عن الطرماح. ولهذا الكلام منطلق صحيح: قال ابن السكيت في كلامه عن أبرق وأرعد: "فقال الأصمعي: **ليس قول الكميت بحجة، هو مولّد**" (إصلاح المنطق،193) أي قوله هذا مولّد لا كل ما قاله الكميت! وأدل دليل على ذلك أن **الأصمعي هو الذي جمع ديوانه** أولا واستشهد بالكثير من أشعار الكميت والطرماح أيضا **وكيف يمكن أن يحكم عليهما بكونها غير حجة** ويتخذهما حجة هو وكل اللغويين في زمانه!! [1] . وأخذ هذا أيضا أبو الفرج الأصفهاني **قبل المرزباني** وحاك على ذلك حكايات حول اقتباسهما للغريب من غيرهما من الشعراء ! وكل هذا فظيع وفي كتاب "الأغاني" ما هو أفظع بكثير من حيث صحة الرواية (على الأقل).

1 ـ راجع فيما يخص استشهاده بشعر الكميت: خلق الإنسان 182 و187 وكتاب الإبدال لابن السكيت 4 و37 وكتاب أبي العميثل:10 مرات ومجاز القرآن: 29 مرة! والطرماح: كتاب الإبل 66 و72و96 و97 و113 و140 وكتاب الإبدال 21 وغير ذلك كثير جدا وهذا لا يخص فقط الكميت والطرماح بَلْ قد اتّهم أيْضا القُحَيْف وقال: "إنه ليس بفصيح ولا حجة" (54) واستشهد بشعره مع ذلك أبو عبيدة في مجازه (2, 29,108, 84) وأبو زيد في نوادره (176و 208) وذكره ابن سلام في طبقاته وكذلك هو ابن قيس الرقيات الذي قال عنه: " إنه ليس بحجّة وذكره أيضا ابن سلام (647-655).

وعلى هذا فلابد أن نحتاط كل الاحتياط عند رجوعنا إلى الكتب الأدبية وكذلك كتب الطبقات لأن الكثير مما ترويه هذه الكتب من أخبار هو غير موثوق بصحته لأنهم يتقبلون غالبا كل شيء طريف مستطرف ولو كان على حساب الحقيقة ولا يكفي في التثبُّت أن نرجع إلى أكثر من مصدر إذا توالى صدورها الواحد بعد الآخر فيكون قد نُقل الخبر على التوالي. والعبرة في ذلك هو الرجوع إلى المصدر الأول الأقدم الذي شهد فيه العلماء المعاصرون لصاحبه بالثقة والأمانة العلمية وذلك مثل كتاب ابن سلام الجمحي[1] (لأنه هو نفسه عالم وأي عالم). كما أن هناك كتاباً لفهرسة الكتب جعله صاحبه، زيادة على ذلك، كتاب طبقات وهو الفهرست لابن النديم وهو من أوثق ما وصل إلينا بإجماع العلماء فلا يُشبه بذلك غيره من كتب الطبقات. فيجب ألا نقبل من هذه الكتب أي خبر أو أي قول إذا انفرد به صاحبه وخاصة إذا خالف صراحة كل ماجاء في غير ذلك الكتاب من الأخبار[2].

أما كتب الأدب فينطبق عليها ما ينطبق على غيرها إلا كتابان اثنان ينبغي ألا يوثق بهما في نظرنا وهما كتاب الأغاني لأبي الفرج الاصفهاني والموشح للمرزباني. أما الأول فقد كاد يجمع العلماء القدامى على أنه "يأتي بأعاجيب بـ"حدثنا" و"أخبرنا"

1- ويشترط في ذلك أن تحذف كل النصوص التي أضافها المحقّق إلى النص الأصلي لأنها مأخوذة من الأغاني وبعضها من الشعر و الشعراء.

2 - ونقل الخبر الواحد عبر العصور في هذه الكتب لا يُعتبر حجة.

(ميزان الاعتدال، 3, 123) وعن النَّوبَخْتِي "أن أبا الفرج الاصفهاني أكذب الناس" (نفس المصدر). ويكفي للتأكُّد من ذلك أن نقارن بين ما يحكيه من الأحداث وما قاله عن هذه الأحداث -إن وجدت- المؤرخون أو غيرهم من المؤلفين الموثوقين. والتناقض بيّن جدا بين ما يحكيه عن العلماء والشخصيات الاسلامية البارزة وبين ما يقوله غيره عنهم وهو يخلط بين أسماء من يحكي عنهم ويخلط بين زمان وآخر ويجرؤ على أشنع من ذلك. والموشح يشبهه إلى حدّ بعيد. وكلا الكتابين -يحتاج- والأغاني أحوج- على أن ينظر فيهما بجدّ حتى نقِي أنفسنا من هذه الكارثة التي نزلت بنا وهي: الرجوع الدائم إليهما والاعتماد عليهما كمصدرين موثوقين في البحث العلمي الخاص بتراثنا.

3) وفيما هو راجع إلى طريقة المقارنة القياسية الدلالية:

إن البحث في المعاني التي يقصدها مؤلف في نص أو في كتاب لا يمكن، في نظرنا، أن يكتفي الباحث بما له من حاسة لغوية أي بما يعرفه جيدا من لغته أو أن يكتفي بما تمدّه المعاجم إذ العثور في المعاجم على كل المعاني التي يمكن أن يقصدها المستخدمون للغة هو من المستحيل، هذا في زمان معين أما إذا مرّ على اللغة برهة من الزمان فيحتاج الباحث أن يتتبع تحوّل الكلم التي تهمه من حيث معناها **في النصوص أنفسها**.

فنحن مضطرّون إذن أن نعود **إلى النصوص** ولابد من منهج للتحليل نسير عليه بطمأنينة. والذي نعرضه ههنا على القراء الكرام هو نوع من الطرائق التحليلية الدلالية الغاية منها هو الكشف عن المعاني التي قصدها مؤلف بالفعل في استعماله لعبارات معينة في نص معين وتحديدها تحديدا دقيقا حتى لا تلتبس بغيرها. فهي طريقة تشخيصية للمعاني أي **استكشافية** للمعنى المقصود في نص معين وقد تكون زيادة على ذلك **بُرهانية**: الغاية منها حينذاك أن يُستدلّ بها على صحة ما يُذهب إليه من الافتراضات حول المعنى المقصود ويمكن أن يكون الأمر كذلك للدقة المنطقية التي تتصف بها بعض هذه العمليات الاستكشافية.

إن هذه الطريقة قد بُنيَتْ على مفهوم **الاستغراق** Distribution كما يفهمه علماء اللسانيات الحديثة ويسميه النحاة العرب قديما بـ" **قسمة الموقع**" أو المواقع (شرح الرماني للكتاب)وهو عند العرب أوضح وأبين لأن المفهوم المحدث يعني به المحدثون **استفراغ جميع ما يمكن أن يحيط بوحدة لغوية في الخطاب** أو كل ما تحتمله من سياق لفظي ذي دلالة.

فإن كنا نعتمد على "قسمة المواقع"لاستخراج المقصود الدلالي فإن ذلك لا يعني أننا نعتمد على نظرية الدلالة الاستغراقية Ðistributionnal Semantics لأننا مقتنعون أن المعنى المقصود من كلمة معينة لا يمكن أن يُحدّد بما تختص به من خواص استغراقية

(أو موقعية) الفئة التي تنتمي إليها هذه الخواص. لسبب بسيط وهو عدم وجود توازٍ تام بين التصاريف المختلفة للدال الواحد وتصاريف مدلول هذا الدال. أما قول اللسانيين: "كل فرق يحصل بين تركيبين فله ما يناسبه من فرق في المدلول"[1]. فهذا صحيح إذا كنا نعني بذلك أن هناك تناسبًا، مَبْدئيًا، بين تصرّف الدال والمدلول بتصرف أغراض المتكلم.غير أننا نريد بطريقتنا شيئا آخر وهو الكشف لا عن الأغراض الذاتية البلاغية التي يريد المتكلم والكاتب تحصيلها في خطابه بل المعنى الموضوعي (غير الذاتي أو الفني) الذي هو مراد المتكلم عند استعماله لمفردة معينة. وعلى هذا فالذي نريد أن نستغله بالتمام هو ما يحصل من التناسب بين تغيُّر السياقات التي تحيط بمفردة معينة من جهة(ما تحتمله من المواقع) ومن جهة أخرى تغيّر مدلول هذه المفردة.

ومع ذلك فإننا سنستعين كثيرًا في هذا بطرق الأداء البياني المختلفة المعروفة عند العرب بل وسنتحصل بذلك على معلومات ذات القيمة الكبيرة فيما يخص اكتشاف المعاني المقصودة.

بُنِيَت طريقتنا على أسس لغوية منطقية من تلك التي تخص العلاقات الدلالية (العلاقات بين المعاني في المنطق الطبيعي) والهدف هنا هو إثبات المعاني التي قصدها اللغويون العرب عند استعمالهم لمصطلحاتهم عبر العصور. وها هي ذي أوصافها:

---

1 ـ انظر: "الطريقة الحديثة في دراسة المدلولات "للساني الروسي أسبريان.

فيما يخص الألفاظ المترادفة (Synonyms) والمتضادّة[1] (Antonyms) والأجناس (Hyponyms) وأفراد الجنس (Co-hyponyms) وغير ذلك فإن هذه المفاهيم تعتمد على هذه العلاقات: علاقة المطابقة وعلاقة التضاد وعلاقة الاشتمال أو الاندراج وهكذا.

نقول عن س و ص أنهما مترادفان إذا كان وإذا كان فقط يظهران في نفس الموقع في داخل خطابين متطابقين أو متشابهان ويكون تساوي مدلولهما قد ثبت، من جهة أخرى، على أساس تساوٍ سياقي أو مرجعي أوسع.

فمن المناهج التي يمكن أن تصل بنا إلى اكتشاف المعنى المقصود هو الإحصاء في النص الواحد لكل العبارات أو القِطَع من الخطاب التي لها نفس المدلول وتكون فيها مفردة نسميها م$_0$ [2](وهي التي نبحث عن معناها) تتعاقب مع عدة مفردات أخرى (كأن تقوم مقامها في تراكيب أخرى) م$_1$، م$_2$،..... م ع. فإذا كان من بين هذه المفردات مفردة يكون لها معنى قد يتفق بأحد معاني المفردة التي تحملها م$_0$ ونسميه س فيمكن أن نفترض أن هذا المعنى هو الذي يقصده المتكلم في استعماله لـ م$_0$ في هذه السياقات.

1 ـ وهي غير الأضداد في العربية (هما هنا لفظان لكل واحد مدلول هو ضد المدلول الآخر لا غير).

2 ـ فهذه تحتمل أكثر من معنى يمكن أن يقصده المتكلم.

وللتثبت من ذلك فَعلَيْنا أن نبرهن على أن جميع العبارات: ع$_0$ ، ع$_1$ ...ع$_2$ ونسميها: "سياقات مكتنفة" هي متساوية في المعنى ويرجع ذلك إلى التبيين بأن كل هذه السياقات لها نفس المرجع وأنها تنتمي إلى مجموعة واحدة من السياقات. وهوما نسميه بالسياق المرجعي.

أما اكتشافنا للمفردات المتضادة والأجناس وما تحتها فيمكن لذلك أن نلجأ إلى نفس الموازاة بين العبارات (كما يقول علماؤنا القدامى: حمل شيء على شيء وهو ما سمي في الرياضيات الحديثة بالـ: Bijection). ومثل ذلك م$_0$ وم$_1$ فإذا كانا متضادّين في المعنى فلا يتحقق ذلك إلا إذا كان وفقط إذا كان يظهران في عبارتين متكافئتين من حيث السياق ولا يختلفان إلا بوجود النفي في أحدهما.

وحاولنا أن نطبق هذه الطريقة في تحليلنا للنصوص التراثية [1].

4) التمحيص للنظريات اللسانية: سنكتفي بمثال واحد

حقيقة المعيار اللغوي وماهيته من الناحية العلمية

ليس الغرض من علوم اللسان الحديثة،كما هو معروف، أن نتخيّر في تناولنا العلمي للظواهر اللسانية الخاصة بلغة من اللغات معيارًا معيّنا لهذه اللغات بتحكم كامل فليس لنا أن نفضّل كيفية خاصة في تأدية لفظ منها على غيرها وليس للغوي الموضوعي أن يختار مما يسمعه

1ـ استخدمنا هذه الطريقة في كتابنا: علم اللسان العربي وعلم اللسان العام و«السماع اللغوي العلمي عند العرب».

ويدوّنه من الكلام المنتمي إلى تلك اللغة ما يعتبره هو وبسبب غير علمي صوابا وغيره خطأ. فهذه المواقف لا تمتّ بسبب إلى العلم إطلاقا.

ومن جهة أخرى فإنّ وضع النحو العربي عند العرب كان لسبب ديني اجتماعي وهو المحافظة على لغة القرآن وكذلك كان الغرض من وضع النحو للغة السنسكريتية لغة النصوص المقدسة عند الهنود واللغة اليونانية لغة النصوص الأدبية القديمة. فالقرار هو من حق الشعوب هنا ولا دخل للعلم فيه. نعني بذلك اختيار معيار لغوي معين وتفضيله على غيره.

أما الوصف الموضوعي لهذه اللغات من جهة واستنباط الحدود لها من جهة أخرى فهذا قد يكون موضوعيا غير مرتبط بأي مجتمع فالمهمّ هو أن نتفادى الخلط بين هذا العمل الذي أدى إلى **تحليل موضوعي لهذه اللغات** وبين الغرض الذي دفع بعض العلماء إلى القيام به فهما شيئان مختلفان.

وقد يكون السبب الذي يدفع الواصف للغة إلى أن يفضل ويختار بعض الألفاظ أو العبارات أو كيفية معينة في النطق على غيرها هو تفضيل فئة معينة من المجتمع وقد تكون هذه الفئة غالبا الطّبقة الاجتماعية الحاكمة أو ذات السؤدُد السياسي أو الاقتصادي على غيرها وذلك مثل لغة البلاط الملكي في زمان فرنسوا الأول في فرنسا في القرن السادس عشر. فقد أصدر قانونا يقتضي بأن تكون لغة أهل باريس

وضواحيها (وهي لغة البلاط الملكي) هي اللغة الرسمية للدولة وذلك في سنة 1539 وأن يُقْتصر على استعمالها هي وحدها في الأحكام والمحاكمات والمدارس. وكان الغرض من ذلك التوحيد اللغوي الثقافي وإضعاف تأثير اللهجات أو اللهجات الأخرى (وكانت كثيرة جدا في ذلك الزمان في أوربا كلّها بالنسبة إلى كل اللغات المتفرعة من اللاتينية وغيرها). وكان بعض الكتاب والشعراء قد كتبوا ونظموا أشعارهم بلهجتهم الخاصة ومنهم أهل باريس.فصارهؤلاء بذلك النموذج ولغتهم المعيار الذي يجب اتباعه وتم ذلك بالتمام في القرن السابع عشر. وحرّرت في ذلك الزمان كتب كثيرة تصف لغة هؤلاء الكّتاب والشعراء وتحاول أن تفرض هذه اللغة على جميع المثقفين وهكذا كان. وإلى مثل ذلك صارت سائر اللغات في أوربا حيث فرضت لغات الفئات السائدة (مع بقاء اللهجات في الاستعمال غير الرسمي في سائر البلدان إلا في فرنسا) .

فكل هذا سلوك اجتماعي سياسي محض **لا علاقة له بالعلم** وهو **اختيار** تختاره فئة اجتماعية أو أمة بأجمعها ولا يوصف الاختيار الاجتماعي بأنه علمي (إلا أنه قد يكون حقًا). لأن البحث العلمي في اللغة خاصة ليس من أهدافه أن يفرض معيارًا لأسباب سياسية أو دينية أو غير ذلك فالعلم إنما هو المعرفة الموضوعية التي لا يشوبها أي اعتبار اجتماعي إذ الأحكام العلمية هي أحكام على **الواقع على حقيقته** والحقائق العلمية يتساوى في الاعتراف بها الخلق كله.ومن ثم خلّط

اللسانيون التابعون للتيار السوسوري أو السلوكية الأمريكية بين تحصيل المعرفة الموضوعية العامة - على اختلاف أنواعها -وبين **الوصف** المجرد للظواهر وحَصَرُوه فيه فكل ما هو علمي في هذا الميدان عند هؤلاء **فلا بد أن يكون من قبيل الوصف** وكل معرفة موضوعية عن اللغة فلا يمكن أن تحصل إلا بالوصف للظواهر اللغوية وهذا الاعتبار يكون صحيحاً فقط عندما يُضيفون: **"كما هي وكما تحدث في الواقع لا كما يريد الباحث أن تكون"**.

إلا أن **الوصف للظواهر** ولاسيما بالطريقة المعهودة عند اللغويين الوصفيين ليست الجانب الوحيد الذي يتصف به التحصيل للعلم. إذ للعلم جانب آخر لا يقل أهمية وهو **الوصف للأعمال** لا للظواهر أي التحديد والترتيب الدقيق لكل العمليات اللازمة للوصول إلى نتيجة معينة وذلك مثل المنطق الصوري والحساب والجبر وحساب المثلثات وعلم ضبط العمل (Cybernetics) وعلم الحاسوب(Computer science) وغير ذلك **وكلها علوم** إلا أن بعض الفلاسفة كان يسمى المنطق منها **"بالعلم المعياري"** ويعني بذلك أن الغاية منه ومن الرياضيات هو الضبط لما يلزم من العمليات لتحقيق غاية أو الحصول على نتيجة معينة ويقتضي هذا البحث الوصف أيضا غير أنه لا يرتبط بالظواهر بل يخص العمل الذي هو في مقابل الظاهرة ويعني بالعمل ما كان يقصده العلماء العرب مما نسميه اليوم عملية أو حسابا (Computation=Calcul).(أو ليست الرياضيات علما؟) وهذه

البرامج التي يبحث الحاسـوبي عن اللغات الحاسوبية(البرمجيات)التي ستوضع على أساسها البرامج - وهي الخورزميـات (Algorithmes) أيُعقل أن يخرج ذلك من البحث العلمي أي من المعرفة الموضوعية: فأين يكمن التحكم فيه وأي ذاتية توجد فيه؟ وقد يقول القائل إنها علوم تطبيقية! وليس الأمر كذلك لأن التطبيق هو الاستثمار لما اكتشف في مختلف العلوم والبحث العلمي التطبيقي هو البحث عن أنجع الطرق لاستغلال ما أثبت العلماء من القوانين أو الأوصاف أو العناصر أو ما اخترع من المنّاهج والطرائق ويدخل في ذلْك البحث في النْحو العلميْ وهو البحث عن أنجع الطرق للاستفادة من النحو العلمي (وهو ميدان من ميادين اللسانيات).

فأما النحو العلمي فلا يمكن أن ينحصر فقط في وصف نظام لغة معينة واستخراج وحداتها [1]. فاللغة أداة للتبليغ لها نظام عُرْفي أي نظام خاص بها متواضع عليه فالمعرفة العلمية لهذا النظام لا تقتصر على معرفة تصنيفية تحصر عناصر اللغة بتحديد الأوصاف الذاتية وكيفية تقابلها بل تتجاوز ذلك إلى معرفة **كيفية مجراها**[2] في **استعمال المتكلم لها** لأن اللغة وضع واستعمال أي نظام واستعمال المستعمل لهذا النظام. ولهذا ضوابط تضبط هذا الاستعمال. وليست هذه الضوابط

1 ـ ولا يعنون بالنظام أو البنية (عند الوصفيين) إلا كيفية تقابل الوحدات لا غير.

2 ـ قارن ذلك بعبارة تكثر على لسان العلماء القدامى: "مجاري كلام العرب"

قوانين لظواهر معينة أي أحداث معينة تحدث على كيفية خاصة فقط بل هي أيضا قوانين ومُثُل تتحدد على مثالها العمليات التي تحدثها كظواهر وأحداث -وهي أحداث الكلام المنطوق والمسموع. فهذه الأحداث هي ظواهر إلا أنه لا يكفي أن نصفها كظواهر بل لا بد من أن نعرف أيضا **على أي مثال(Modèle) تحدث. والمُثُل هي من أهمّ ما يتكون منه العلم "الضابط" المتجاوز للعلم "الواصف"**. ثم البحث عن أي واحد من المثل هي المتواضع عليها والأكثر استعمالا فهو جانب آخر من البحث اللساني، فالجانب العلمي الضابط لحدوث الأحداث وخاصة التي يُحدثها الإنسان (كمجموع أفعاله ومنها الكلام) لا تقلّ أهمية عن الجانب الوصفي لحدوث الأحداث [1].

3 ـ والوصف بمعناه العام لا يقابل الضبط لأن المثال يمكن أن يوصف فالذي يقابل الضبط هو الوصف للظواهر كظواهر لا كمجموع عمليات مرتّبة تفضي إلى نتيجة. وتسمّى الضوابط أيضا قواعد إلا أن المقصود منها في اللسانيات هو هذه السلسلة من العمليات المرتبة المؤدية إلى توليد عبارة تنتمي إلى جنس معين. فالوصف لهذه العمليات هو الجانب الآخر (الذي لا تعرفه البنوية).

الذخيرة العربية مشروع علمي حضاري

أ .د. بشير إبرير

قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة عنابة

تمثل الذخيرة (*) العربية اقتراحا حضاريا يعدّ إضافة علمية نوعية، يسهم في تقدم العلم ويرسم استراتيجياته المستقبلية.

وتتأسس الإضافة العملية على جملة من المعطيات منها:

إدراك الأسس العلمية و المعرفية للموضوع أو المشروع المقترح وتوقّع آفاقه المستقبلية؛ وليس شرطا أن تعني الإضافة الإتيان بالجديد الذي يعدّ سبقا علميا خالصا، وإنّما قد تعني لـمّ شتات المعارف الموجودة وإعادة تنظيمها وصياغتها صياغة جديدة أو تحديد ميادين تطبيق تعود بالفائدة والنفع على الفرد والجماعة من ناحية من النواحي.

* ـ محاضرة ألقيت في الملتقى الوطني الرابع للذخيرة العربية المنظم من طرف المجمع الجزائري للغة العربية بالاشتراك مع كلية الاداب والعلوم الانسانية والاجتماعية بجامعة باجي مختار ـ عنابة.

إن الإضافة العلمية ـ كما أراها ـ هي عبارة عن اقتراح أصيل لا يمثل نسخة طبق الأصل لغيره من الاقتراحات السابقة كلية وإنما قد يتكامل معها ويتفاعل ويؤسس لاقتراحات أخرى ستأتي بعده.

ومن هنا تكون الذخيرة العربية إضافة علمية؛ لأنها مشروع علمي حضاري قومي يتعدى طاقة الفرد الواحد أو الجماعة الواحدة أو الدولة الواحدة؛ فهو مشروع جماعي تتعاضد على انجازه مؤسسات علمية عربية عديدة مثل: المجامع اللغوية والمنظمات الثقافية والتربوية، كالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ومكتب تنسيق التعريب، والحكومات العربية [1]." إنّه مشروع جدير بأن يشرف عليه لا مركز واحد ولا بلد واحد بل البلدان العربية كلّها وفي أعلى مستوى مادام هناك إجماع على أهميته القصوى وذلك برفعه للمستوى الثقافي العربي إلى ما يقارب مستوى الغربيين"[2] وهذا من الناحية النظرية.

يعرّف الدكتور " عبد الرحمن الحاج صالح" الذخيرة العربية بأنها: " بنك آلي من النصوص، وهي ليست مجرد مدونة أدخلت في ذاكرة الحاسوب، وهي ليست CDROM كما يقولون، بل مجموعة

1 ـ وهنا تكمن المشكلة، إذ لم تتعود المؤسسات العربية على العمل الجماعي الوحدوي وكثير من المشاريع الطموحة أثرت عليها اختلاف وجهات النظر والندوات السياسية فأجهضتها وذهبت بجهود أصحابها.

2 ـ عبد الرحمن الحاج صالح، مشروع الذخيرة العربية، دراسة ، مجلة المجمع اللغوي الجزائري، عدد 2، ديسمبر 2005، ص، 287.

من النصوص أدمجت على الطريقة الحاسوبية، حتى يتمكن الحاسوب من مسحها كاملة، أو جزئيا،ولها عدد من البرامج الحاسوبية وضعت خصيصا لإلقاء أنواع خاصة وكثيرة من الأسئلة على الذخيرة."[3]

وتكمن أهمية الذخيرة العربية في كونها:

1. تنظر إلى اللغة في إطار منظومة علمية واجتماعية وتربوية واقتصادية وسياسية، في إطار ثقافة المعلومات وفي علاقتها بمنظومة المجتمع برمته، فاللغة تتبوّأ موقعا بارزا على خريطة المعرفة الإنسانية، فلها علاقة وثيقة بالفلسفة والعلوم الإنسانية والطبيعية والفنون بأنواعها، ولها أيضا علاقة وطيدة مع الهندسة، وذلك من خلال هندسة الذكاء الاصطناعي التي تساهم فيها اللسانيات الحاسوبيةCOMPUTATIONAL LINGUISTIC بقسط كبير" [4].

إن مشروع الذخيرة العربية لا ينظر إلى اللغة العربية وآدابها فقط ولا إلى العلوم اللسانية وحدها، وإنّما ينظر إلى العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم الأساسية والتكنولوجيا على حد سواء؛ لأن اللغة هي الوسيلة بالنسبة للباحث في أي علم من العلوم أو معرفة من المعارف، وهي لسان حاله المعبِّر عن نتائج علمه المبلِّغ لأفكاره عبر الزمان والمكان الشارح الواصف لمحتويات المعرفة على اختلافها في العلوم والآداب

3 ـ المرجع نفسه، ص،288.

4 ـ ينظر نبيل علي، اللغة العربية وعصر المعلومات، رؤية لمستقبل الخطاب الثقافي العربي، علم المعرفة، رقم 265 ، سنة 2001 ، ص، 239 , 240.

والفنون جميعا [5] كما أن الإبداع العلمي مرتبط أشد الارتباط بإتقان اللغة والتمكن منها في التحصيل والاكتساب وفي التبليغ أداء شفويا وتحريرا كتابيا، ذلك أن الكتابة التقنية الجيدة هي التقديم المختص والمركز لمعرفة معلومة متعلّقة بموضوع ما، وهي تبرز تتابعا منطقيا أو تأطيريا للفكر، بحيث تحقق الهدف المرغوب فيه، كما تبلِّغ المعلومة أو الخبر بوضوح ودقّة وفعالية، باستعمال الاستراتيجيات اللسانية والتنظيمية الضرورية لبلوغ الهدف المسطّر مسبقا، وبهذا تكون الكتابة العلمية الجيدة فرعا من أصل عام هو الكتابة الجيدة مطلقا، إذ تعكس الدقة اللغوية قيمة الخطاب العلمي وما يتطلّبه من دقّة في القياسات والملاحظات والحسابات والتنبؤات التي تعدّ عاملا هاما في النقد والتقدير العلميين.

وبهذا فإن التحكم في ناصية اللغة من حيث صفاؤها وخلوها من الأخطاء النحوية أو من اللحن ليس حكرا على المتخصصين في اللغة والأدب فحسب، وإنّما تتطلبه الكتابة العلمية كذلك[6].

ولعل ما تعانيه الجامعة الجزائرية في وقتنا هو عدم إتقان اللغة بصفة عامة ناهيك بإتقان اللغة العلمية المتخصصة المتعلّقة بعلم من العلوم la langue de spécialité يعدّ هذا إشكالا بالغ الخطورة لابد من الالتفات إليه في البحث العلمي والأداء التربوي.

---

5 ـ من ذلك هذه الندوة التي جمعت بين قسم اللغة العربية وآدابها، وقسم الإعلام الآلي، بادرة نرجو لها أن تتكرر.

6 ـ ينظر بشير إبرير، في تعليمية الخطاب العلمي، مجلة التواصل، عدد8، سنة2001 ، ص،80,79.

ونرى أن الذخيرة العربية توفر للباحث وللمدرس وللطالب جملة من المعطيات المتعلّقة بالمخزون اللغوي الذي يمكن أن يستثمره في منتوجه العلمي والتربوي.

2. الذخيرة العربية وتكامل المعارف: الجمع بين المعرفة اللغوية والأدبية والمعرفة العلمية:

من بين العناصر التي تميّز مشروع الذخيرة العربية وتجعلها إضافة علمية، النظر إلى اللغة في إطار تكامل المعارف وتضافر الاختصاصات فالمتأمل لهذا المشروع الضخم سيلاحظ سعة النظرة إلى العلم والمعرفة بمختلف فروعها واختصاصاتها سواء ما تعلّق بالعلوم الإنسانية والاجتماعية أم بالعلوم التقنية، وهي أيضا إشكالية خطيرة تعانيها الجامعة الجزائرية التي كثيرا ما همّشت المحتوى الثقافي للمعرفة العلمية والمحتوى العلمي للمعرفة اللغوية والأدبية مما تسبب في إحداث فجوة بين المعرفتين أو الثقافتين وقطع حبل التواصل بينهما: نتجت عنها حصيلة مروعة لمخرجات العملية التعليمية، تمثل في خرّيجين يبعدون بُعدا كاملا عن الفهم الواعي لمجريات الحياة والمجتمع، وقد تسبب ذلك في إفشال منجزات مشروعات التنمية وطرائق تخطيطها وإدارتها، لأن الذين يقومون عليها يعانون من التخلّف الثقافي" على رأي سليمان العسكري[7].

7 ـ ينظر سليمان العسكري، التعليم والثقافة، أبعاد جديدة في علاقة غائية، مجلة العربي، عدد 497, أبريل 2000, ص، 8, وما بعدها.

فمن الثقافتين أوالمعرفتين العلمية والتكنولوجية والإنسانية والاجتماعية بما في ذلك اللغة والأدب تتكون **ثقافة ثالثة** وهو مصطلح يكاد يكون مجهولا في الساحة الثقافية والعربية على خطورته بالنسبة لمفهوم الثقافة[8] وتعريف المثقف ومن ثمة النخبة التي تقود عملية التعريف بهذه الثقافة[9].

إن الباحث في ميدان العلوم الصارمة في حاجة إلى معطيات العلوم الإنسانية والاجتماعية واللغات والآداب، والباحث في هذه الميادين الأخيرة في حاجة إلى معطيات الثقافة العلمية بما يصنع رأس المال الثقافي cultural capital.[10]

هو مفهوم فكري يؤكد على مدى تأثير المعنوي في المادي والمردود الاقتصادي والاجتماعي للثقافة، فكما يقول سليمان العسكري:

---

8 ـ لا أرى أن مفهوم الثقافة واضح في خطابنا الرسمي الجزائري إلاّ قليلا، وكثيرا ما يبدو متعلّقا بالمهرجانية وبعض المظاهر المنبتّة عن جذورها.

9 ـ ينظر سليمان العسكري، الثقافة الثالثة ولكن، مجلة العربي، عدد544, مارس 2004, ص،8, وما بعدها.

10 ـ انتشر هذا المصطلح كثيرا في كتابات المفكر الأمريكي فرنسيس فوكوياما، بعد صدور كتابه "نهاية التاريخ" سنة1989م، وكتابه الآخر، "الثقة" دور الثقافة والفضائل الاجتماعية في تحقيق الازدهار الاقتصادي عام 1995م، وطوّرها لتصبح كتابا ضخما عنوانه:" الانفراط الكبير": الطبيعة البشرية وإعادة بناء النظام الاجتماعي، ينظر سليمان العسكري، رأس المال الثقافي مفهوم جديد وتناقضات عابرة، مجلة العربي، عدد556, مارس2005م، ص، 8, وما بعدها.

"يدور الحديث كثيرا حول تأثير الأصالة اليابانية في دفع تقدمها التقني لتتبوّأ مركزا عالميا متقدما كما يدور حديث مماثل عن قيم العمل لدى الصينيين وتأثير هذه القيم في نهضة النمور الأسيوية ارتكازا على مبادرات الأقليات الصينية في انطلاق العملاق الصيني نفسه" (11).

وإذا كانت هذه قيم غيرنا فما هي قيّمنا نحن؟

يقول في شأن التواصل بين الثقافتين "لورنت لافورج L. LAFFORGE" : "إني مسرور بوجه خاص لهذا اللقاء بين رياضي؛أي مختص في العلوم، ولفيف من أساتذة الآداب، لأني أعتقد أن مدرستنا الجمهورية (يقصد فرنسا) التي نحن جميعا مدانون لها بما نحن فيه من نعمة، هي في خطر وليس لنا إذا ما أردنا إنقاذها وتصحيحها سوى أن يشكل رجال الأدب والعلم جبهة مشتركة إذ من الواضح في ذهني أن جميع التخصصات متأثرة تأثرا كبيرا بنقص الاعتبار الذي تحظى به الدراسة والمعرفة من قبل مجتمعنا برمته، ومصابة بانخفاض عام في المستوى التحصيلي ومصابة بتشوه وزوال هيكلة المحتويات التعليمية..." (12).

---

11 ـ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

12 ـ أبو بكر سعد الله، هل إتقان اللغة مرتبط بالإبداع العلمي؟ مجلة المجمع الجزائري للغة العربية، عدد2،ص 118,119.

فهناك إذا علاقات نسب ووشائج قربى بين المعرفتين فكلاهما تستفيد من الأخرى، بل إن المعرفة اللغوية والأدبية لجد ضرورية للمعرفة العلمية. فعندما لا يمتلك العالم الكلمات أو الألفاظ اللغوية فإنه لا يستطيع التعبير عن موضوعات علمه وخصائصها وأوصافها بل ويعجز على صياغة نتائجها واستثمارها في واقع الحياة، وتكون تلك الصياغة من وحدة نصية مترابطة منسجمة لغويا وفكريا لتعبّر عن المقصود وتبلّغ الغرض، أو لتقرأ من الآخرين.

إن ما نلاحظه بشأن التعليم الجامعي في بلادنا وبخاصة في الفروع العلمية أنه لا يلتفت إطلاقا إلى القواعد اللغوية من نحو وصرف وإملاء وما تتطلّبه اللغة المكتوبة من صياغة وضبط بالرغم من كونها: "تشكل قسطا معتبرا من مكوّنات رجل العلم. لماذا؟ لأن تلقين المنطق ومرونة الاستدلال يتمان عبر اللغة الطبيعية [13] ثم إن الخطاب العلمي يتميز ببناء خاص تقني وتنظيمي ولساني فهو عبارة عن بنية تفسيرية تجمع بين قاعد مفاهيم المصطلحات التي تدل بوضوح على مجال البحث وبين الدلالة والبراهين التي يتم تقديمها في إطار الظواهر المدروسة وما يتعلّق بها من تفاسير وشروح، وكل هذا يتم بإجادة اللغة وإتقانها.

13 ـ المرجع نفسه، ص، 121.

3 . الذخيرة العربية والمعرفة اللسانية:

نسجل أيضا أن الذخيرة العربية تتأسس على معطيات لسانية خليلية في الوصف والتحليل والبحث، من مثل الأصل والفرع والباب والمثال والوضع والاستعمال والقياس واللفظة والعلامة العدمية.....

وفي التركيز على **المخزون التراثي والاستعمالي** كما تبرزه النصوص المكتوبة وفي التركيز على المنجز الحداثي كما تبرزه النصوص المعاصرة في شتى ميادين المعرفة والعمل على جعله ذخيرة عربية يتم استثمارها وتوظيفها في البحث العلمي والتربوي بصفة عامة.

ونرى أن هذا سيمكن الباحث من **النظر الابستيمولوجي** للعلوم والمعارف وإدراك السياقات المعرفية والفكرية والبيئات الثقافية التي نشأت فيها المفاهيم والمصطلحات والنظريات العلمية ومعرفة الترابط المنطقي بينها، وهي مسألة أساسية في البحث العلمي والتربوي في بلادنا بل وفي الوطن العربي كله، يرى المفكر الجزائري" محمد أركون" في هذا الشأن أن الإنتاج الثقافي العربي المعاصر يغيب عنه النظر الابستيمولوجي يقول: "فهناك إنتاجات من مستويات عدة ولكن النظر الابستيمولوجي يقوم بالذات على النظر إلى ائتلاف في مختلف النشاطات التي يبلورها الفكر في ثقافة ما، وفي فترة ما، هذا البحث عن الائتلاف والمراقبة لمختلف أنواع الخطاب العلمي التي أنتجها الفكر العربي المعاصر غير موجود ومن ثم لا نستطيع قول شيء عن الابستيمولوجيا العربية الكلاسيكية، وبالمقدار نفسه لا نستطيع

الحديث عن ابستيمولوجيا للفكر العربي المعاصر ....وبالمقابل فإن هناك انقطاعا كأن نجد عربيا حقّق تقدما أو سبقا في ميدان الفيزياء مثلا أو ميدان السوسيولوجيا، إنها نشاطات متقطعة في ممارسة الفكر العربي المعاصر، وما نجده مهيمنا هو خطاب من الطراز الإيديولوجي السياسي القتالي[14].

وقال في السياق نفسه المفكر المغربي محمد عابد الجابري : " عرف العرب رياضيات الإغريق وحساب الهنود ولكن معرفتنا نحن بما عرفوه ناقصة، ولذلك لن نكون في إمكاننا تقديم صورة واضحة بقدر كاف عن المعرفة الرياضية ونوعية التفكير الرياضي عند العرب"[15].

ولهذا فإن الذخيرة العربية بما أنها ستكون مدونة نصية كبرى ستمكن الباحث من الرجوع إلى الاستعمال الحقيقي للغة العربية ولا يكتفي بما في القواميس ولا في كتب القواعد وأن يمسح هذا الواقع كما يشاء ويستقريه كما ورد في سياقاته الاستعمالية الأصلية ومقاماته التبليغية وأحوال الخطاب"[16]

14 ـ ثلاث شهادات عن الاستشراق والمعاصرة، محمد أركون، جمال الدين بن شيخ، أندري مايكل، حوار أحمد المديني، محمد أركون "التأمل الابستيمولوجي غائب عن العرب" مجلة الفكر العربي المعاصر، بيروت، الأعداد، 20, 21, 22, صيف 1982م، ص، 84, 85, نقلا عن وائل غالي، تاريخ العلوم العربية وتحديث تاريخ العلوم، بحث في إسهام رشدي راشد، سلسلة العلوم والتكنولوجيا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر،2006م، ص،30.

15 ـ محمد عابد الجابري، تطور الفكر الرياضي والعقلانية المعاصرة، بيروت، دار الطليعة 1976م، ص، 57, نقلا عن المرجع السابق.، ص، 30.

16 ـ عبد الرحمن الحاج صالح، مذكور سابقا، صن 267.

غير أن إدراك مثل هذه المسائل المعرفية والمنهجية مشروطة بمعرفة اللغة العربية معرفة علمية معمّقة في أصولها ومظانها التراثية وأحوال خطابها وظروف إنتاج نصوصها.

ومشروطة أيضا بالقناعة بأن وعينا الحالي لا تشكّله الثقافة العربية وحدها خالصة، وإنّما تساهم الثقافة الأجنبية أيضا في تشكيله وتوجيهه بمستويات مختلفة ودرجات متفاوتة بما تنتجه من فكر وثقافة وتقنية، ونذهب إلى القول بأن الثقافة الغربية اليوم لم تعد ثقافة خاصة بأهلها فحسب بل صارت عنصرا أساسيا في البنية الثقافية العربية الحديثة كذلك.

4. الذخيرة العربية مصدر معلوماتي:

تعد الذخيرة العربية مصدرا معلوماتيا مهما يحاول بناء قاعد علمية معلوماتية ذاتية متطورة في ضوء الانفجار المعرفي فعصرنا هذا -بحق- هو عصر المعرفة ولا مكان فيه لمن لا يعرف، ومن هنا علينا أن ننطلق من سؤال أراه مهما وهو : كيف نعرف؟ أو بأي طريقة أخرى للتساؤل : كيف نتكيّف مع هذه المعرفة؟ أو كيف نستفيد منها؟

لقد تطورت وسائلها وأساليبها، فلم تعد مقتصرة على استخدام الكتب والمراجع وما صاحبها من إنشاء للمكتبات التقليدية، وإنما أصبحت أهمية استخدام الحاسوب في تخزين المعلومات لما تتميز به من قدرة عالية على بلورة الرأي وتشكيل العقل، وعليه كيف نستفيد من

الثقافة العالمية على تنوعها واختلاف مناهجها وتشابك علاقتها؟ وكيف نعمل على التعريف بثقافتنا وإنتاجنا الفكري ونقله إلى الآخر في ضوء بروز مفاهيم جديدة مثل العولمة؟

إن محاولة الإجابة عن هذه الأسئلة تحتاج منا إلى إدراك خصوصيات المشكلات الاجتماعية المطروحة على مجتمعنا وتفهم الآليات المحرّكة للثورة الإعلامية داخل المجتمعات الصناعية [17].

وبخاصة أن " منافع ثورة تكنولوجيا المعلومات ليست موزّعة توزيعا متساويا في الوقت الحاضر سواء بين البلدان المتقدمة والبلدان النامية أو في داخل المجتمعات..."[18].

وللذخيرة العربية المحوسبة فوائد عديدة من الجوانب الثقافية واللغوية والتربوية والعلمية من ذلك: "تمكين أي باحث أو طالب أو تلميذ (أو مواطن) من أن يتحصل وفي وقت وجيز على المعلومات التي يحتاجها في أبحاثه ومشاريع اختصاصه".

ويمكن للباحث من الجانب اللغوي أن يتحصل على معلومات لغوية متجاوزا الجانب اللفظي المعجمي إلى المجالات السياقية التي يتواتر فيها اللفظ والقدرة على إحصائها واستنطاق ذلك[19].

---

17 ـ ينظر منذر عافي، الفجوة الرقمية ورهانات التنمية، قراءة سوسيولوجية في النموذج التونسي، مجلة الحياة الثقافية، عدد 167, نوفمبر 2005م، ص، 10, 11.

18 ـ مصدق الجليدي، على مشارف المرحلة الثانية من القمة العالمية لمجتمع المعلومات، تونس، الديمقراطية المعرفية العوائق والفرص المتاحة، الحياة الثقافية، ص، 31.

19 ـ عبد الرحمن الحاج صالح، مذكر سابقا، ص، 266, وما بعدها.

ومن شأن هذا أن ينعكس على النواحي التربوية والتعليمية، فالمتعلّم مهما كان مستواه يحتاج إلى ما يثير ذهنه ويشوّقه إلى المعرفة والبحث عن الحقائق.

ثم إن أكبر ما يمكن أن تحققه الذخيرة العربية ما يتعلّق بالبحث العلمي، الذي يعد في عصرنا هذا جزءا فاعلا في الحياة الثقافية والعلمية وسلاحا قويا يقتحم به الباحث ماضي أمته ويحلّل به حاضرها ويستشرف من خلاله مستقبلها ويخطط له، وهو الخطوة الأولى إلى الحقيقة العلمية وعنصر أساسي في التقدم الاقتصادي والاجتماعي والتربوي والثقافي والحضاري، إن المعركة حاليا هي معركة البحث العلمي"[20]، ولا معنى للجامعة إذا لم تكن البحوث فيها نشطة ومرتبطة بالتدريس وبحاجات المجتمع، وإن الدول المتقدمة علميا تعتمد على الجامعات في حل المشكلات التي تعترض نموها وارتقاءها، ويمكن في هذا الإطار أن تقدم الذخيرة العربية عدة حلول للبحث العلمي أهمها:

أ/ إشكالية المصطلح في الجامعة الجزائرية سواء ما تعلّق بالبحث أم بالتدريس، إذ توجد فجوة حقيقية في توليد المصطلح واستعماله

20 ـ تخصيب اليورانيوم في إيران، وقبله في العراق وكوريا، وما أثاره ويثيره من مشاكل على مستوى الأمم المتحدة ومجلس الأمن، وما حلّ بالعراق، من غزو أمريكي يدخل في إطار معركة البحث العلمي، وتوظيف المعرفة في السيطرة على العالم.

الأمر الذي أدى إلى اختلاف وجهات النظر وأثّر على نتائج البحث والمردود التربوي وولّد لدينا **تبعية مصطلحية**، فالغرب ينتج ونحن نترجم دون إدراك أصول الترجمة والتحكّم في اللغة المنقول منها والمنقول إليها وإدراك الخلفيات الثقافية والأسس الفكرية الكامنة خلف المصطلحات والموجهة لها نحو تحقيق أهداف محدّدة، وقد أثّر هذا على كل صيغ الخطاب العربي إعلاما واقتصادا وتربية وبحثا علميا وسياسة وثقافة ورؤيا مستقبلية.

ونرى أن الذخيرة العربية ستمكن الباحثين والمؤسسات العلمية من وضع المصطلح الأكثر موضوعية الذي يتسم بالوضوح والإحاطة بالمفهوم إحاطة كافية، لأن الحاسوب يمكنهم من حصر كل السياقات والمعاني التي تدل عليها الصيغ اللغوية، وقد يؤدي ذلك إلى الإسهام في تضييق الفجوة بين الباحثين العرب بما يوحد المصطلحات بينهم بالرجوع إلى واقع الاستعمال. (21)

ب/ محاولة إعداد محتوى علمي معرفي محوسب متعلق بالذخيرة العربية: إعدادا رقميا بتحويل النصوص والأشكال والأصوات لتصبح قابلة للمعالجة الآلية وترميزها وتهيئة وثائق المحتوى لعملية تبادله عبر الإنترنت باستخدام رموز لغات خاصة مثل HTMC

21 ـ عبد الرحمن الحاج صالح، مذكور سابقا، ص، 267, 268.

وبالإضافة إلى التشكيل الآلي للنصوص تحاشيا لحالات اللبس، وإعرابها آليا لأن ذلك يعد شرطا أساسيا للتحليل العميق لمحتواها الذي ينبني على تحليل بنيتها التركيبية، وكذلك ترقيم النصوص العربية آليا لكشف البنية السردية للجمل والمقولات النحوية وتحديد فواصلها [22].

وانطلاقا من كل ذلك **يتم توصيل أوجه الفهم الوظيفية للعلوم والمعارف** والعمل على حسن توظيفها والاستفادة منها وبخاصة في البحث العلمي والتدريس بالجامعة لما لها من نفع في مشاريع تنمية المجتمع.

وهكذا يتبين من مثل هذه المشاريع فراسة العلماء الذين ينظرون إلى المستقبل غير المحدود للعلم والتكنولوجيا، وبالطبع لا يمكن للفرد الواحد أن يصنع مستقبلا، فهناك معرفة متراكمة تشكّل مادة أولية حيّة للبحث والتقصي، بشرط ألاّ تبقى جامعاتنا ومؤسساتنا للبحث تغط في النوم العميق، إذ غالبا ما تغلق أو تغلّق أبوابها مباشرة بعد انتهاء ساعات الدوام يوم الثلاثاء أو الأربعاء قبل نهاية الأسبوع بيوم أو يومين وكذلك المكتبات الجامعية التي تغلق أبوابها بدءا من شهر ماي إلى أكتوبر مضافا إلى ذلك العطل الفصلية وغيرها.

---

22 ـ للمزيد من التفاصيل المفيدة جدا، لا بد من الرجوع إلى نبيل علي، ونادية حجازي، الفجوة الرقمية رؤية عربية لمجتمع المعرفة، عالم المعرفة، رقم 318, 2005م، ص، 134, 135, وما بعدها.

بينما الجامعات في الغرب مثل خلايا النحل لا تهدأ، تفتح أبوابها حتى ساعات متأخرة من الليل وتكون منبرا للعلم والثقافة والحوار الفكري والبحث العلمي[23].

23 ـ رأي لمعهد كنعان التربوي الإنمائي الفلسطيني، غزة، نقلا عن سليمان العسكري، العربي، عدد 497, أبريل، 2000م، ص،11.

حَوْسَبَةُ المعجم العربي: ضرورة علمية وثقافية (*)
(رؤية تحليلية من خلال مشروع الذخيرة العربية)

أ: أحمد حابس

قسم اللغة العربية وآدابها

المقدمة:

توفر الذخيرة العربية أو الإنترنت العربي -هذا المشروع الضخم-عدة إمكانيات تقنية وفضائل علمية تعود على كل العلوم الإنسانية والاجتماعية بالخير الوفير والنفع الكثير، كما تطمح الذخيرة العربية إلى توفير كل أسباب البحث العلمي ودمج المحيط الاجتماعي والثقافي في الوسط الحضاري، وتهتم في جلّ هذه الاتجاهات باللغة العربية

* ـ محاضرة ألقيت في الملتقى الرابع لملتقى (الذخيرة العربية) إشراف المجمع الجزائري للغة العربية، بالتعاون مع كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة باجي مختار في عنابة، أيام: 9 ـ 10 مايو 2006 م .

وإشكالات تعليمها، لتضعها في الصورة اللائقة بها وفي المكانة العالمية والعلمية المنوطة بها، وقد تكون طفرة حضارية لا سابق لها في العصر الحديث، باعتبار ما تقوم به الذخيرة العربية من جمع للغة العربية، وتعدد مجالاتها العلمية والأدبية [1].

ومن هذا الانشغال تحاول هذه المداخلة أن توضّح بعض المعالم في جزء من اهتمام الذخيرة العربية وهو :**"حوسبة المعجم العربي"**، وهو الجزء الذي يعد ميدانا واسعا في الدراسات اللسانية العربية القديمة والحديثة.

فالمعجم هو الوعاء اللغوي لحضارة المجتمع الإنساني، وفهرس معارفه وخبراته، وهو خط التقاء اللغة، قواعدها وأنماطها وقيودها مع العالم على اتساعه؛ ظواهره ومدركاته وخيالاته ووضعياته وعرفياته، بل عشوائياته [*] أيضا.

وشاع بين الناس قديما شعار مفاده : **"إذا أردت أن تعرف حضارة أمة فانظر في معجمها"**[2]، ويمكن استبداله اليوم بشعار آخر، قد يكون: **"إذا أرت أن تنشر لغة فاصنع لها معجما"**[3].

---

1 – وهو كما يرى بعض الباحثين في مجمع اللغة العربية بالقاهرة" الجمع الثاني للغة العربية"، بعد تعليقه على مداخلة الأستاذ الدكتوز " عبد الرحمن الحاج صالح" في ندوة القاهرة في شهر أفريل 2006 م.

* – عشوائياته: وهي ما تضمنه النص المعجمي من مفردات خاصة بأمراض الكلام وعيوب النطق وبخاصة مسألة "اللثغة" والكلام المحذور (المحظور) وبعض كنايات الفقهاء والعلماء.

2 – الجيلالي حلام، المعجمية: التأسيس النظري، ص، 20 .

3 – هذا الشعار من وضعنا ونقصد به: " نشر المعجم على شبكة الإنترنت العربي أو تحصيله من نصوص الذخيرة العربية هو نشر للغة العربية وخدمتها لا غير".

فالمعجم هو الوعاء اللغوي الذي تلتقي فيه كل أنماط الحضارة لأي مجتمع بشري، ودليل معارفه، وخبراته وتجاربه التي مرّ بها، وهو بذلك مركز التقاء كل المعطيات اللغوية ومبادئها وهياكلها، وأساليبها وقيودها مع المحيط الخارجي، أو مع العالم المحيط به، فهو سجل الحضارات ولغاتها بجميع أشكالها من ظواهر ومدركات، وما وصلت إليه مستوياتها من تطور وتغيير وتحديث، فهو الشاهد الفصل على جميع تقلّباتها.

وبالموازاة مع ذلك،فقد شهدت صناعة الحاسوب وملحقاته، والتقنيات المتعلّقة به في العقود الخمسة الأخيرة من القرن الماضي(القرن 20) تطورات سريعة فاقت كل التوقعات، سواء من حيث الكم أو الكيف، فأصبحت هذه الأداة العصرية المسماة **"بالحاسوب"** جزءا لا يتجزأ من حياتنا العلمية والخاصة، وباتت أداة تثقيفية وتعليمية لا يمكن الاستغناء عنها.

ولن نكون في حاجة إلى تأكيد خدمات الحاسوب وأهميته في وصف أنظمة اللغات الطبيعية، فذلك أصبح من بديهيات الأمور العلمية في وقتنا الراهن، كما أن المجال الرحب الذي وجدت فيه النظريات اللسانية المختلفة استثمارا وتطورا أصبح محكوما بزمام المعلوميات وما تقدمه أو تنجزه في صياغة البرامج القادرة على محاكاة دماغ الإنسان، وبذلك أصبح الحاسوب قادرا على صياغة قوانين صورية تقوم بدور مزدوج وهو:

أ/- وصف النظام اللغوي في سائر مستوياته باستعمال لغة عقلانية .

ب/ التوليد اللامتناهي لبنيات اللغة وفق قوانين الاستعمال العادي لها.

فالحاسوب ـ كما هو معلوم ـ يتعامل أساسا مع الأرقام أو النظام الرقمي، فمن الطبيعي أن يكون الاتجاه الذي يجب أن يتوفر له ذا شرطين هامين بل أساسين وهما:

1. توفر إطار نظري ومنهجي واضح المعالم، يعتمد على أساليب صورية ذات طبيعة رياضية في تعامله مع النظام اللغوي: (Garbage in Garbage out).

2. توفر فريق من الحاسوبيين الذين لهم خبرة لسانية أو اهتمام باللسانيات حتى يتمكنوا من صناعة برامج تعالج بها أنظمة اللغة الطبيعية ومكننة معلوماتها ونماذجها.

كما يجب ـ من جهة أخري ـ أن يكون اللّساني متمكنا من القواعد الأساسية لأنظمة المعلوميات المعاصرة، وذلك لأنها أداة فعّالة تدفع باللّساني إلى تكييف عمله واقتراحاته لغاية المعالجة الآلية لنظام اللغة، ومن ثم يتجنّب الحشو في القواعد الذي كان يعتري النظريات اللسانية التقليدية.

ويبدو أن المعجم كان من أيسر الميادين التي سارعت علوم الحاسوب إلى معالجته[4] ، لأنه مهيّأ أصلا ليكون مجالا واسعا

4 – د/ نبيل علي، اللغة العربية والحاسوب،ص، 216، وما بعدها.

لاستثمار التطبيقات الحاسوبية، فهو يتمتع ببعض الخصائص التي يسعى علماء الحاسوب إلى بسطها وتوظيفها وهي: **"البيانات والمعلومات والمعارف"**، **فالبيانات** ممثلة في قوائم مفرداته الثرية، **والمعلومات** متنوعة من خلال العلاقة الكثيفة التي تربط بين هذه المفردات والعدد الهائل من الشروحات والتحليلات، والمؤشرات الإحصائية التي تتسع باتساع هذه العلاقات وتعددها، **والمعارف** تظهر من خلال الحصيلة المفهومية - بسيطة ومركبة ومعقّدة - وهي كل ما يحتوي عليه النص المعجمي من مشارب دلالية، ومناح ثقافية ولغوية، أو معلومات موسوعية.

فالمعجم هو حصيلة التفاعل بين ما تنتجه الجماعة اللغوية، وما تقرّه مجامعنا من جهود من أجل المحافظة على أصول اللغة وتحديثها، والعمل على تقييسها وتنميط حدودها واستخدامها.

وينتمي المعجم بهذه الصفة إلى المنظومة اللغوية التي طرفاها: **نظام التقعيد والحصيلة اللغوية**، فالمعجم على حد تعريف "أندرسون": "هو المحل الهندسي لكل ما لا يمكن رصده من خلال القواعد، والتنبؤ به على ضوء العلاقات المطردة والقرائن المنطقية التي تتضمنها التعبيرات اللغوية" (5).

فمفردات المعجم ليست أسماء نطلقها لتمييز الأشياء والمفاهيم، بل هي رموز تلتقي معانيها ومدلولاتها من خلال تشابك السياقات

5 - نفسه، ص،470.

بالكلمات والمفاهيم التي تشكل أصل المعجم ونواته التي ينشطر عنها هذا التشجير الكثيف في تحديد مجالات توظيف الوحدات المفرداتية بجميع أنواعها **(بسيطة ومركّبة ومعقّدة وتعابير مسكوكة، أوالمأثورات الأدبية والتعابير اللغوية)**(*).

2 ـ حوسبة المعجم العربي: الواقع والطموح (الدراسات السابقة في الموضوع):

إن التقدم التكنولوجي في ميدان المعلوميات والتطور المذهل في الدراسات اللسانية المعاصرة، قلّص الهوة الشاسعة بين علماء اللسانيات وعلماء الحاسوب، حيث حمل نتائج المعسكر الأول على دراسة ثروة المعسكر الثاني، كما قرّب بين الفريقين تقريبا كاملا، وهذا ما طبع البحوث المعاصرة في ميدان المعجمية بطابع الحوسبة والتطبيق الآلي للمداخل المعجمية.

فالمعجمية كانت -وستظل- من الفروع اللسانية الهامة التي ستزود الحاسوب بأهم المعطيات التي يمكن استغلالها أحسن استغلال في الدراسات اللغوية والأدبية، فالحاسوب وشبكة الانترنت يعتمدان اعتماديا كليا على المعطيات المعجمية التي استثمرت في هذين الميدانين استثمارا هائلا، وكانت فعلا مجالا واسعا في كل الدراسات التطبيقية.

---

*ـ يوجد في كل نوع من هذه الموضوعات معجم خاص، ينظر أحمد الشرقاوي إقبال، معجم المعاجم.

فمن حيث النظرية الحاسوبية للميدان المعجمي يمكن الاعتماد على الجذور الأولى للمداخل المعجمية، ويقول في ذلك صنّاع الحاسوب: " لانجاز المعاجم الإلكترونية نرى أنه من الضروري الاعتماد على المداخل المعجمية الثرية، فهي متنوعة بحسب الموضوع والترتيب، منها الترتيب الصرفي والترتيب النحوي، والترتيب الدلالي، وهذا ما يساعد الحاسوبي على توظيف كل هذه المعلومات ثم يبرمجها لتستغل في ميدان الترجمة الفورية مثلا أو تحديد الدلالات المختلفة للكلمة المدخل "[6].

وتنتظم الدراسات السابقة لحوسبة المعجم العربي في ثلاثة أنماط، وهي:

■ **الندوات:** وهي ضربان : عالجت إحداهما **اللغة العربية وتمثلها للحاسوب**، وعالجت ثانيتهما: **اللغة العربية وطاقة الحاسوب**.

■ **المؤلّفات:** وهي تلك الكتابات التي تناولت الموضوع ـ **حوسبة المعجم العربي** ـ تناولا قاصدا.

■ **البرامج:** وهي تلك الأعمال التي تناولت مدى استجابة عبقرية اللغة العربية للحاسوب.

جاء في ندوة الرباط التي عقدها مكتب تنسيق التعريب عام 1983م عرض "الطاقة التصريفية في اللغة العربية" إذ إنه من جذر واحد تستطيع قواعد الاشتقاق أو التصريف أن ننتج عددا لا متناهيا من الكلم

6 - THIERY FANTASIELLE., Réseau Sémantique et dictionnaires bilingue électronique ,Tunis 1997

والمداخل المعجمية ذات الأنماط والدلالات المحدّدة، وبهذا الاعتبار تبدو اللغة العربية أنسب للحاسوب من بعض اللغات الأخرى التي عرفت هذه المعالجة قبل اللغة العربية.

ودرست ندوة **الكويت** المنعقدة عام 1985م "استخدام اللغة العربية في الحاسب الآلي" وتمثيل النظام الصوتي لمعالجة الكلام العربي في نظام الحاسوب، وهو اقتراح لحوسبة المادة المعجمية في نظام آلي يقوم مقام المعجم الورقي، غير أنه مزج كل هذه المحاولات بنظام الكتابة العربية في الحاسوب ومدى فهم النصوص العربية وتحليلها وبخاصة النظام الصرفي، الذي يقوم فيه تحليل وحدات الكلم على نظام الحاسوب أو بمساعدة الحاسب.

وتناولت ندوة الرباط الثانية لعام 1987م إمكانات توليد الكم المفرداتي للمعجم من خلال الجذور والأوزان ويتم ذلك عبر ثلاث مراحل وهي: **الاستبدال وقواعد التحويل ثم التعديل الإملائي** وفق أرقام أفقية وعمودية، على هذا النحو:

مدرسة(درس)	مَفْعَلَة	فعل	يفعل
مكتوب(كتب)	مفعول	فعل	يفعل
قاتل (قتل)	فاعل	فعل	يفعل
دَرسَ	فعل	يفعل	فاعل

ويمكن قراءة الجدول انطلاقا من الكلمة للتعرّف على مكوّنيْها (الجذر والوزن).

وفي السنة ذاتها عقدت ندوة **تونس** دراسة حول اللغة العربية والإعلامية لمناقشة دواعي حوسبة اللغة العربية وعوائدها وعوائقها، وركّزت أعمالها على استعمال الحاسوب في انجاز المشتقات والمزيدات من الكلمة العربية المجرّدة وفقا لقواعد الصرف العربي أي الانتقال من الجذور إلى مشتقاتها ثم إلى مزيداتها.[7]

واهتم مؤتمر **الكويت** لسنة 1989م بشرح دور الحاسوب في التحليل الصرفي والعلاج الآلي للغة العربية ومدى تطبيقاته، وهناك عرض الأستاذ الدكتور "محمد الحناش" مشروعا لبناء معجم عربي تركيبي إلكتروني، وهو بحث اتخذ الفعل مدخلا لأن الفعل يمتلك ذاكرة سجلت فيها جميع القوانين النحوية والدلالية التي تسمح بأن يختار النوع المناسب من الأسماء والصفات وعددها[8].

وامتدت بحوث المؤتمر الثاني في **الكويت** لعام 1989م حول اللسانيات والحاسوب إلى طرائق التوليد والتحليل الصرفيين، والتحليل والتركيب النحويين، وقواعد الإملاء والشكل، ثم الترجمة وتعليم

---

7 – ندوة تونس، اللسانيات والإعلامية، 1989.

8 – وهو نفس المشروع الذي حاكى فيه تقنيات المشروع الفرنسي في وضع المكنز الفرنسي باعتماد ثلاث مراحل وهي: DELAS ، (المعجم الإلكتروني للغة العربية للمفردات البسيطة، DELAC المعجم الإلكتروني للغة العربية للكلمات المركبة، DELAF المعجم الإلكتروني للغة العربية للكلمات المدخل.

النحو، وفيه ذكر الأستاذ د/"داوود عبده" صعوبات تدقيق الإملاء آليا في اللغة العربية وقال: "تصحيح الإملاء يقتضي قدرة على قراءة الكلمة في السياق الذي وردت فيه وعلى فهم تركيب الجملة وهما أمران مرتبطان ارتباطا وثيقا بإتقان قواعد النحو والصرف"[9]

أما ندوة **مكتبة الملك عبد العزيز في الرياض** لعام 1992م فتناول فيها الأستاذ الدكتور "عبد الرحمن الحاج صالح" **موضوع النحو العربي والعلاج الحاسوبي**" وما ينطوي عليه مفهوم الباب ومفهوم **الأصل والفرع والقياس** من تصور منطقي رياضي إذ يصبح الباب ثمة بمنزلة المثال الكليّ الناظم للمفردات التي تتفرّع عن الجذر المعجمي أو البنية الصرفية أو التركيب النحوي، وهي قواعد معطيات المعجم المنشود من خلال الذخيرة العربية [10]

وحدّدت ندوة **القاهرة** لعام 1992م دراستها في حوسبة اللغة العربية لمناقشة المنهج وخصائص اللغة العربية ووسطية النحو العربي.

أما ندوة **العراق** التي عقدت في السنة ذاتها 1992م حول الحاسبات واللغة العربية فناقشت عدة مسائل من أهمها:

- استخدام الحاسوب في برمجة اللغة العربية.
- دراسة موضوعات النحو والصرف والإملاء وأساليب الكلام ليؤدي مهمات الخبير اللغوي في ضبط النص العربي.

---

9 – د/نهاد موسى، العربية نحو توصيف جديد في ضوء اللسانيات الحاسوبية، ص، 211.

10 – نفسه.

وتناولت **ندوة مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود** لعام 1992م التمثيل الدلالي للجمل العربية وبرمجة التعابير المسكوكة في اللغة العربية.

وتطرقت **ندوة مجمع اللغة العربية الأردني** "اللغة العربية والحاسوب" إلى دراسة المعاجم العلمية العربية المختصة ودور الحاسوب، ونمذجة كيفية توليد المصطلحات في المعجم المختص، والتحليل الصرفي للغة العربية باستخدام الحاسوب.

وشملت ندوة تونس عام 1996م : **اللغة العربية في المعلوميات** الكلمة والجملة، والمعالجة الآلية للكلام المنطوق (التعريف والتأليف).

وعرضت ندوة **ماليزيا** لعام 1996م الإطار الحاسوبي للصرف العربي وتوليد المصطلح بناء على قاعدة معطيات مصطلحية متعددة اللغات باعتماد آليات التوليد.

أما المؤلّفات التي تناولت موضوع اللغة العربية وعلوم الحاسب نذكر منها في هذا المجال ما يلي:

- **اللغة العربية والحاسوب** (1988م) للدكتور نبيل علي.
- **الثقافة العربية وعصر المعلومات** (رؤية لمستقبل الخطاب الثقافي العربي) وهو عدد خاص من مجلة "عالم المعرفة" رقم276 لعام 2001م، للدكتور نبيل علي.
- **العربية نحو توصيف جديد في ضوء اللسانيات الحاسوبية** (2000م) ، للدكتور نهاد موسى.

■ **المعجم العربي المولد** (2002م) وهو مجموع أعمال الندوة التي أشرف عليها الأستاذ عبد القادر فاسي الفهري في الرباط.

وتوزّعت النشاطات الأخرى في دراسة اللغة العربية وعلوم الحاسوب في **مقالات** نشرتها **مجلة اللسان العربي** التي يصدرها مكتب تنسيق التعريب، **ومجلة التواصل اللساني** المغربية التي نشر فيها الأستاذ محمد الحناش مشروع نظرية "حاسوب -لسانية في بناء معاجم آلية للغة العربية.

وضمت **مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق** وبخاصة المجلد الثامن والسبعون (أكتوبر 2003م) أعمال ندوة المعجم المنعقدة عام 2001م التي تطرقت في أكثر من دراسة لحوسبة المعجم العربي ومشكلاته اللغوية التقنية، وطرح فيها الأستاذ "عبد الرحمن الحاج صالح" مسألة أنواع المعاجم الحديثة ومنهج وضعها التي جاء فيها :"تختلف المعاجم الحديثة بحسب الأغراض التي حدّدت لكل نوع منها وذلك من حيث بنيتها وأساليب وضعها. ولكل نوع طريقة خاصة في ضبطها وتحريرها وقواعد معترف بها عالميا. أما المعاجم العربية الحديثة فقد انتهج محرّروها، في الغالب، المناهج التي سار عليها مؤلفو المعاجم القدامى. وحاول بعضهم انتهاج الطرق الحديثة التي ظهرت في الغرب في عصرنا هذا وقد تناسى أكثرهم أن لوضع المعاجم شروطا أهمها هو أن يعكس المعجم الاستعمال الحقيقي للغة لا ما يعرفه مؤلفه من اللغة أو ما ينقله من المعاجم الموجودة في زمانه. وهذا لا يمكن أن يتحقق إلاّ بحصر

هذا الاستعمال الحقيقي في مدونة كبيرة تكون هي المرجع الأساسي الذي لا مناص منه في تأليف المعجم بطريقة علمية. وهذا لا يمكن أن يتحقّق دون اللجوء إلى الوسائل الحاسوبية[11].

كما **ضمّت مجلة اللغة العربية للمجلس الأعلى للغة العربية بالجزائر** دراسات مماثلة تناولت الموضوع من عدة جوانب كاللغة العربية والحاسوب، المعاجم العلمية العربية المختصة ودور الحاسوب[12].

فهذا جزء من واقع حوسبة المعجم العربي، أما ما نراه من طموح في تجسيده ومعالجته معالجة واضحة تفرد لها دراسات خاصة به لتحيق ما تصبو إليه الصناعة المعجمية العربية المعاصرة فهو دون شك في ما تطرحه الذخيرة العربية أو الإنترنت العربي حيث يذكر هذا المشروع طموحا يتمثل في النقاط الآتية :

- إن الذخيرة العربية هي بنك النصوص الآلي ومنبع موضوعي وموثق للمعاجم العربية والدراسات اللغوية عامة، وجاء في فيها:

" إن بنك النصوص المراد إنشاؤه سيكون المنبع الذي لا يستغنى عنه أي باحث في اللغة بل ومنبعا للكثير من الدراسات في العلوم الاجتماعية وتاريخ الأفكار والنظريات وغيرها.

11- الحاج عبد الرحمن صالح، أنواع المعاجم الحديثة ومنهجها ووضعها، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، ص، 673, عدد خاص بندوة المعجم العربي، 2001.

12- مجلة المجلس الأعلى للغة العربية بالجزائر، العدد الثاني.

وسيتمكن الباحثون من إجراء :

- رصد دقيق وشامل لاستعمال العربية في إقليم خاص في عصر من العصور.
- رصد منتظم للاستعمال الحقيقي لمصطلحات ميدان فني معيّن.
- تصفح لمعاني الكلمات من خلال سياقاتها عبر الزمان وتحديد تاريخ ظهور بعض الكلمات الفصيحة المولّدة أو اختفائها.
- تحليل لغة كاتب أو شاعر أو خطيب وإحصاء مفرداته بكيفية آلية وغير ذلك؛ وعلى هذا الأساس يمكن أن تؤلّف أنواع كثيرة من المعاجم مثل:
- المعجم التاريخي للغة العربية؛ هذا الهاجس الذي ظل يراود الفكر العربي والصناعة المعجمية العربية منذ أمد طويل.
- معاجم خاصة بأسماء الأعلام والأماكن وغيرها.
- معاجم فنية في كل الميادين.
- معاجم أساسية ووظيفية لتعليم اللغة العربية.
- معاجم لألفاظ الحضارة قديما وحديثا.
- معاجم لغة الطفل العربي.
- معاجم مدرسية متدرجة [13]

وعلى ضوء ذلك تنهي الذخيرة إشكالات المعجم العربي والمقاربات الفردية التي تناولت أشتات البحث المعجمي العربي في

13 ـ مشروع الذخيرة العربية أو الإنترنت العربي، مطبوعة خاصة بالمشروع.

اضطراب بين القديم والحديث وما انجرّ عنها من هوة في المنهج والمادة بين الدراسات العربية الأصيلة (التراث) والدراسات الغربية الوافدة (محاكاة المعجم الغربي الحديث)، ومحاولة تجسيد الاستعمال الحقيقي للغة العربية من خلال النصوص المعجمية الثرية.

3 ـ معطيات النص المعجمي العربي وعلاقتها بمتطلبات الحاسوب:

تنوعت المعاجم العربية تنوع الثقافة العربية في كل عصر من العصور أو كل حقبة من الأحقاب التاريخية التي مرّت بها الحضارة العربية منها:

■الرسائل اللغوية الموجزة، وهي ـ حسب اعتقادنا ـ النواة الأولى في وضع المعجم العربي.

■المعاجم الموضوعية ـ ومثّلت التفكير المعجمي الموسَّع أو الشامل بناءا على الرسائل اللغوية الأولى، كما أنها صورة من صور الصناعة المعجمية العربية العظيمة، وهو المعجم الذي ندعو إلى إعادة ترتيبه ترتيبا ألف بائيا ليكون أكثر استعمالا وأيسر تناولا وأكثر فائدة.

■ المعاجم العربية الضخمة، وهي تلك المؤلفات الفذة التي حملت فلسفة الصناعة المعجمية العربية المبنية على الفكر الرياض ـ ولا ننسى أن أول معجم عربي قد بني على فكر رياضي خالص ـ

■ المعاجم المختصة وهي تلك المعاجم التي تناولت مصطلحات علوم العصر الذي ظهرت فيه أو في ما تقدمها من العصور.

■ المعاجم النوعية وهي المعاجم التي درست جزءا من الكم المفرداتي العربي من خلال مدونات كبرى نحو معجم الملابس من خلال لسان العرب، أو دراسة موضوع محدّد من خلال مؤلفات كثيرة مثل "معجم بقية الأشياء لأبي هلال العسكري".

■ المعاجم المدرسية وتنوعها، وهي تلك المعاجم التي ندعو إلى تخليصها من نير التدهور والانحطاط الفكري الذي ألمّ بمادتها ومنهجها.

■ المعاجم الفردية أو معاجم الأشخاص وهي المعاجم التي درست مؤلفات العلماء ومصطلحاتهم ومفرداتهم مثل: معجم الجاحظ و معجم الأصمعي وغيرهما من العلماء والأدباء.

■ معاجم البلدان والعمران، وهي تلك المعجمات التي يمكن إعادة النظر في تسمية خريطتها القديمة ووضعها الموضع المتجدّد الذي هو عمادها وأساسها ولن يكون ذلك مفيدا ما لم نعود فيه إلى نصوص الذخيرة العربية [14].

فهذا التنوع في المعاجم العربية لاشك أنه سيكون مادة ثرية في حوسبة المعجم العربي وإثراء الدراسات فيه بنية ومنهجا.

---

14 – أحمد حابس، محاضرات في المعجمية، مجموعة محاضرات ألقيت على طلبة الدراسات العليا2004/2005.

4 - إمكانية فرز مكونات النص المعجمي العربي.(الثروة المعجمية العربية):

فالنص المعجمي العربي ثري جدا فيه من المميزات ما يجعله متعدد الفوائد والمعارف والفنون ولذلك يمكن أن يكون ميدانا واسعا للبحث والدراسة في كل المعطيات اللسانية كالبحث الصوتي والصرفي والنحوي والدلالي والأسلوبي والإملائي وكل ما يطلبه الباحث أو الدارس.

وتتجلّى أهمية الحاسوب في صناعة المعجم العربي فيما يلي:

- التعرّف على الحروف والكلمات آليا.
- تخزين المادة المعجمية وترتيبها طبقا للنظام المطلوب.
- استرجاع المادة أو بعضها، استكمال أجزاء من المادة أو من الشرح .
- تعديل بعض المعطيات وحذفها.
- النقل المباشر إلى المطبعة.
- تجديد المعاجم بسهولة.
- إمكانية الحصول على أجزاء محددة من داخل المادة المخزونة لبحثها وإثرائها.
- تخزين النصوص كاملة.
- تحديد السياقات التي ورد فيها المدخل لتحديد المعنى وإثراء الاستعمال الحقيقي للغة.

- دراسة الأبنية الصرفية والتفريعات والعلاقات النحوية بين المفردات.
- تحديد مستويات الاستخدام اللغوي للمداخل المعجمية (علمي، صحفي، رسمي، ودي...)
- تصنيف المصطلحات طبقا للتخصصات العامة والدقيقة.
- ذكر المصطلح العربي ومقابله في اللغات الأخرى.
- التعريف بالمصطلح محلّ الاستخدام.
- يمكّن من صناعة معاجم المصطلحات وتجديدها وطبعها بسهولة.
- ييسر عمل المترجمين بتقديم المفردات والمصطلحات المطلوبة [15].

5 ـ ثراء البيانات المعجمية (الدقة والشمول، الجمع والوضع):

يزخر النص المعجمي العربي بثروة معجمية هائلة وذلك للدقة المتناهية في اختيار مداخله وشمولها فهو المدونة التي جمعت من خلال مدونات أخرى (لسان العرب مثلا) لضمان التواصل العلمي والاستمرار في البحث وتقصي الحقائق، فهذه محمدة المعاجم العربية وليست عيبا في ثراء مادته وضخامة شكله بقدر ما هي ضرب من

15 – د/ عبد الله أبو هيف: مستقبل اللغة العربية: حوسبة المعجم العربي ومشكلاته اللغوية والتقنية أنموذجا، مجلة التراث العربي، عدد: 94,93، دمشق، 2004.

التواصل الفكري وتعدد في طرائق التواصل اللغوي والعلمي بين الأجيال العربية المتعاقبة.

6 ـ تعدد الاستخدامات المعجمية. (مَنْ يستخدم المعجم؟) :

لاشك أن المعجم بهذه النظرة هو محل استخدام كل باحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية والتقنية، فلا يستغنى عنه أحد، فهو محل البحث والدراسة وتقصي الحقائق والتحديد الابستيمولوجي للمصطلحات والمفردات.

خاتمة:

ومبلغ القول إن ما تصبو إليه هذه الورقة العلمية -عاقدة الأمل كل الأمل على مشروع الذخيرة العربية أو الإنترنت العربي- هو حل معضلات المعجم العربي وتخليصه مما لحقه من تشويه وسوء مكانة بين المعجمات الأخرى فهو -في نظرنا- المدونة الأولى التي يمكن الاهتمام بها وإعادة النظر في صياغتها حتى لا نكون في نظر مَن قال: " قد تُحلّ كل القضايا العلمية والثقافة بل والحضارية في المجتمع العربي ولا تحلّ قضية معجمها أي المعجم العربي " [16]

16- أحمد شفيق الخطيب، المعجم العربي بين الماضي والحاضر، المقدمة.

تأثير الثقافة المشرقيّة في المغرب العربيّ ودور المشارقة في نشر اللّغة العربيّة في الجزائر

أ.د . عبد الملك مرتاض

أوّلا. تأثير الثقافة المشرقيّة في المغرب العربي ودور المشارقة في نشر اللّغة العربيّة في الجزائر

لقد سبق لنا أن أثرْنا هذا الموضوع منذ زهاء عشرين عاما [1] , كما أثاره غيرُنا أيضاً غيرَ مرّةٍ فوقع الخوض فيه كثيراً وذلك لخصبه وتشعّبه وغناه؛ وهو: العَلاقةُ الثقافيّة بين المشرق العربيّ ومغربه؛ وأنّ هذه العلاقة كثيراً ما ظلّت متّسمةً بشيء من النّشاز طوراً، وبالحساسَة المفرطة طوراً آخرَ؛ وهي سيرةٌ ما أكثرَ ما تطبع العلاقاتِ بين الإِخْوَة الأشقّاء، والأَقْرِباءِ الأَلِحّاء.

1 ـ ينظر كتابنا: "الجدل الثقافي بين المشرق والمغرب"، دار الحداثة، بيروت، 1986, وهو الكتاب الذي نشر بدمشق والجزائر تحت عنوان: "الثقافة العربيّة في الجزائر بين التّأثير والتّأثّر". هذا، وقد كان اختيار عنوان بيروت من الناشر دون استئذان.

وقد كنّا أعدْنا النّشاز -الأخويّ- الذي ظلّ قائماً في تلك العلاقة، في العصور الأخيرة (أمّا في العصور القديمة فلا! فقد كان الجغرافيّون (ياقوت الحموي في كتابه "معجم البلدان")، والمؤرّخون على اختلافهم (كتّاب التراجم مثل: ابن خلكان في كتابه "وفيات الأعيان، وأنباء أبناء الزمان"، والسيوطي في "بغية الوُعَاة، في طبقات اللغويّين والنحاة": يُعْنَوْن بالمشارقة كما يُعنون بالمغاربة، حَذْوَ النعل بالنعل) إمّا لاسْتِخْذاء المغاربة وشعورهم بالنّقص إزاء المشارقة [2]... وإمّا إلى شيء من اسْتِعلاء الإخوة المشارقة وتجاهُلِهم -غالباً عن غير قصدٍ- لعبقريّة المغاربة الماثلة في كتاباتهم الفكريّة والأدبيّة والتي كثيراً ما يتغاضَون عنها، وخصوصاً في العصور الحديثة.[3] من الآيات على بعض ذلك أنّنا لا نكاد نجد في الكتب المدرسيّة المشرقيّة ذِكْراً للأدباء المغاربة المعاصرين على الرغم من نبوغ بعضهم في الكتابة وجمال

2 ـ ينظر أبو يعلى الزواوي، اشتغالنا بالشرق أنسانا أنفسنا، مقالة منشورة في مجلّة الشهاب، قسنطينة، الجزء الخامس، المجلد الحادي عشر، أغسطس 1935 ص. 288 وما بعدها. وقد ألقى الملامة على الجزائريّين الذين قصّروا في إبلاغ أصواتهم إلى إخوانهم المشارقة...

3 ـ من عجيب المصادفات أنّي وأنا أكتب هذه الكلمة قرأت في جريدة جزائريّة يوميّة تصريحاً للإعلامي اللبناني جورج الراسي يزعم فيه "أنّ الإعلام العربيّ، بشكل عامّ، يعاني من جهل مطبق بالمغرب العربيّ، بدليل جهْله بأسماء المدن والمسؤولين. وهو نموذج لعدم الاهتمام؛ فمعظم ما تنشره الصحف العربيّة ترجمة لبرقيات وكالة الأنباء الفرنسيّة. وما هو معروف عن المغرب العربيّ يأتي عن طريق فرنسا، أو عبر منظور فرنسيّ". (جورج الراسي، يوميّة "الجزائر نيوز"، الجزائر، في 4 نوفمبر 2004, الصفحة الأخيرة). والجهل بأسماء المدن والأشخاص، في الحقيقة، وارد، ليس إلاّ...

الأسلوب. في حين أنّ الكتب المدرسة المغاربيّة لا تزال النّصوص الأدبيّةُ المشرقيّة تطغى على مادّتها. بل ربما وجدنا بعض نقّاد المشرق المعاصرين يقصّر عن معرفة أكبر شاعر في الجزائر، أو في المغرب مثلاً، فلا يُضْني نفسه بعَناء البحث عنه... في حين أنّ المثقّفين المغاربة يعرفون عن الأدب المشرقيّ مثلما يعرف عنه المشارقة أنفسُهم، إن لم يكونوا أكثر منهم درايةً بخفاياه، وأشدّ متابعةً لمساراته، وذلك بفضل مئات الرسائل الجامعيّة التي تحضّر عن الشخصيّات الثقافيّة والأدبيّة المشرقيّة... ثمّ بفضل الْتِهَام الكتب التي تُقذَفُ إليهم من بيروت والقاهرة، وبدرجة أقلّ من العواصم المشرقيّة الأخرى... ولكنْ أَرُونَا كم هو عدد الأطروحات الجامعيّة التي حُضّرت عن أدباء بلاد المغرب، في الجامعات المشرقيّة؟!...

غير أنّ هذا النشاز لم يكن يطبع العلاقة الثقافيّة المشرقيّة المغربيّة في العهود القديمة التي كانت تتميّز برحلة المغاربة إلى المشارقة، وقد زاد من عدد هذه الرحلات إلى المشرق رغبةُ المثقفين المغاربة في أداء فريضة الحج... فكان الطريق إلى مكة يعني رحلة علميّة خصبة يتّصل فيها العالِمُ الحاجّ بمعظم العلماء في مصر ودمشق وبغداد والمدينة المنوّرة فيأخذ عنهم إلى درجة الإجازة... كما تميّزت برحلة بعض العلماء والمغنّين المشارقة إلى الأندلس واستقرارهم بها مثل اللّغويّ أبي عليّ القالي، والمغنّي زرياب... ويضاف إلى ذلك، البعثةُ الدّينيّة المتكوّنة من عشرة فقهاء، والتي أرسلها عمر بن العزيز إلى إفريقية

الشماليّة ليعلّموا النّاس أمور دينهم.[4] ويبدو أنّ كثيراً من هؤلاء الفقهاء لم يقِف نشاطُهم لدى التّدريس الرسميّ في المساجد والكتاتيب؛ بل إننا نفترض أنهم انْبَثّوا (ونحن نصطنع عبارة "نفترض" لقلّة المعلومات التاريخيّة التي يمكن الاِستنامة إليها) في أصقاع من شمال إفريقيا؛ وقد طاب لبعضهم المقامُ فأقام، وتزوّج، ولم يؤُبْ إلى المشرق قطّ. وعلينا أن نفترض، تارة أخرى، خصب تأثير هؤلاء الذي وفدوا من المشرق على إخوانهم المغاربة وكلُّهم فيْضٌ من العلم، بالإضافة إلى قيمة باعثهم وهو الخليفة عمر بن العزيز.

وقد كان فقهاء آخرون نزحوا إلى المغرب الأدنى (تونس) قبل هؤلاء، وأقاموا بالقيروان خصوصا. ويضاف إلى هؤلاء، أولئك الذين كانوا جاءوا مع القادة الفاتحين الذين كان الأُمَويّون يعيّنونهم. وناهيك ببعض هؤلاء عقبة بن نافع، ابن أخت عمرو بن العاص، الذي كان عُيِّن أميراً على حملة لفتح بلاد المغرب، ثمّ وُشِيَ به فأُعيد إلى المشرق. ولم يبرح الحنينُ العارم يراوده ويعاوده حتّى فاتَح معاوية بن أبي سفيان في بعض ذلك فعيّنه، للمرّة الثانية، في حملة استطاع من خلالها أن يعيد فتح الجهة الغربيّة لأقطار المغرب العربيّ، حاليا، ولكنّه استشهد ودُفن بالجزائر... فكلّ هذه الأحداث والرجالات والثقافات أثّرتْ حتماً تأثيراً عميقاً في مسار الثقافة المغاربيّة...

4 ـ ينظر أبو بكر عبد اللّه بن محمد المالكيّ، رياض النفوس، في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهّادهم ونُسّاكهم وسيَر من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، 1. 64–92, تحقيق بشير البكوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981.

غير أن ذلك كلّه لا يمثّل القاعدة، بل يمثّل، في الحقيقة، الاستثناء. ولعلّ الذي زهّد المشارقة في الرحلة إلى بلاد المغرب، ما كان المغاربة لا يزالون ينهضون به من رحلات سنويّة، بانتظام، من أجل أداء فريضة الحجّ إلى بيت اللّه الحرام، كما سبقت الإشارة إلى بعض ذلك...

ويبدو أنّ المشارقة كانوا يُفيدون عن أحوال المغرب من خلال رحلات أولئك العلماء إليهم؛ فنجد أبا عثمان الجاحظ، مثلاً، يذكر مدينة تاهَرْتَ الجزائريّةِ في إحدى رسائله فأعدْنا ذلك إلى أنّه ربما أخبره عن أحوالها الشاعر بكر بن حمّاد الذي أقام بالمدن العراقيّة زمنا طويلاً، (5) كما سنرى.

والحقّ أن العَلاقة الثقافيّة بين المشرق والمغرب ظلّتْ قائمة على التفاعل والتّخاصُب والإفادة المتبادلة إلى أن أصيبت الأمّة العربيّة بالانحطاط في عصورها الأخيرة فانزوى كلّ طرَف على نفسه، وعوض التعاون في خدمة الثقافة العربيّة التي هي ثقافة واحدة ألفينا الاختلال يدبّ إلى هذه خلال الثلاثةِ الأرباعِ الأولى من القرن العشرين خصوصاً، ثمّ بدأ هذا الاختلال يتناقص قليلاً، قليلاً، إلى أن زال الآن بفضل انتشار التعليم الجامعي، ودور النشر، والدّوريات والصحف السيارة في بلاد المغرب... ثم بفضل الندوات الثقافيّة المنعقدة في

5 ـ ينظر أبو عثمان الجاحظ، رسالة الأوطان والبلدان، في رسائل الجاحظ، 4. 128 تحقيق عبد السلام هارون، نشر الخانجي، القاهرة، 1979.

المشرق والمغرب، والتي يُدعى إليها من هنا ومن هناك المثقّفون المشارقة والمغاربة معاً ليتحاوروا في صعيد واحد... وليس أدلّ على ذلك ممّا نحن فيه، هنا والآن، بالكويت...

مظاهر من تأثّر المغاربة بالمشارقة

لقد شاء اللّه، بعد أن جاء بالإسلام، أن يمتدّ الفتح الإسلاميّ، والوجود العربيّ (اللّغويّ الثقافيّ) إلى بلاد المغرب، ومنها إلى بلاد الأندلس، الفردوس المفقود؛ فانتقلت الثقافة العربيّة المشرقيّة بكلّ قِيمها الرّوحيّة والمادّيّة والجماليّة أيضاً إلى هناك، فصقلت الشخصيّة الثقافيّة المغربيّة، (أو المغاربيّة كما يحلو للمثقفين المعاصرين في المغرب العربيّ أن يعبّروا اليوم) بكلّ تلك الخصائص الإنسانيّة الرّفيعة. ولقد كان للقرآن الكريم، والحديث النّبويّ الشريف الأثرُ الأوّل في إغراء المغاربة بتعلّم اللّغةِ العربيّة أوّلاً، ثمّ الشروع في تعليمها للنّاشئة في المساجد والزّوايا والكتاتيب القرآنيّة [6] آخرًا . فظلّ المشرقُ العربيّ الْمُتنَفَّسَ الذي يتنفّس منه المغاربة، والنور الذي يستضيئون به، طوال القرونِ الأربعةَ عشرَ من العَلاقات الأخويّة والثقافيّة؛ فقد كتب الشيخ

6 ـ يطلق على "الكُتّاب" في المغرب الأقصى وبعض المناطق من الجزائر "المسيد" (ويُنطق "لَمْسِيد")، في حين يُطلق عليه في مناطق أخرى من الجزائر: "الْخَرْبِيش"، ويكون حجرة ملحقة بالمسجد المخصّص لإقامة الصلوات).

محمد البشير الإبراهيمي، صديق الأستاذ عبد العزيز الرشيد، مقالة عام واحدٍ وخمسين وتسعمائة وألْفٍ بعنوان: "من نفحات الشرق"[7] عبّر فيها عن استلهام المغاربة للمشارقة، وعن شديد إعجابهم بهم، وانتظار الخير أن يأتيَ منهم فيقع لهم الصّلاح المفقود، والنّفع المنشود... ويدلّ عنوان هذه المقالة على أنّ المغاربة كانوا ينظرون إلى المشرق العربيّ نظرة تتّسم بالتّقدير العظيم، والإعجاب الكبير... والآية على ذلك ما جاء في صدر هذه المقالة: "دَاوِ الْكُلُومَ يا شرقُ! فما زلْنا كلّما استشفَيْنا بك نجد الراحة والعافية، ونظفَر بالأدوية الشّافيَة؛ وما زلنا كلّما استنشَقْنا ريحاً استنشَيْنا رَنْدَكَ وعَرَارَك، ومَرْخَكَ وعَفَارَك؛ وما زالَتْ أفئِدتُنا تَهْوِي إليك فتصافحها حرارةُ الإيمان، وبَرْدُ اليقين، ورَوْح الأمان؛ وما زلتَ تُتْحفنا مع كلّ بازغةٍ منك بالنُّور اللاّئح، والشُّعاع الهادي؛ وما زال يتبلّجُ علينا من سَناكَ، في كلّ داجيةٍ فجرٌ؛ وتَسْري إلينا من صَبَاكَ، في كلّ غَمّاءَ نفحاتٌ منعِشة"[8].

فهذا النّصّ الأدبيّ الجميل المثقل بالشعور الكريم، والشعريّة الطّافحة، هو باقةٌ ضائِعةٌ تُقدَّم إلى الشرق العربيّ من تِلقاءِ غرْبه، ونسائمُ عطرةٌ يَزْدَجِيهَا كاتب جزائريّ مُوقَرٌ بالعواطف الجائشة، والمشاعر الصادقة، إلى حيثُ مهدُ العروبةِ، ومعدن الفصاحة، ومبعثُ الأنبياء...

7 ـ محمد البشير الإبراهيمي، جريدة البصائر (السلسلة الثانية)، ع. 164, سنة 1951.

8 ـ محمد البشير الإبراهيمي، البصائر، ع. 164, وانظر أيضا آثار الإبراهيمي، 2. 551.

وإنّه لا شيءَ كان أدعى إلى الفخر مِن أن يلُوكَ المغاربة ألسنتَهم بمحفوظ الشعر المشرقيّ قديمِه وحديثه، والتنافُس في معرفة رجاله، والتبارِي في محاكاة شخصيّاته الأدبيّة والتّأثّر بأقلامها، والإعجاب بآرائها قبل التفكير في انتقادها؛ ذلك بأنّ الشعراء كانوا -ولا يزالون- في المشرق أكثر،[9] كما كان علماءُ الفقه والنّحو والأصول والبلاغة والنقد والفيزياء والكيمياء والرياضيات في المشرق أيضاً أسبق إلى تأسيس الثقافة العربيّة والتنظير لها. وناهيك بأنّ النحو العربيّ كلّه ينحصر في مرحلة التّأسيس في عاصمتيه الاِثنتين: البصرةِ والكوفة... ولم تتفتّق جهود المدرسة النحويّة المغربيّة إلاّ بعد قرون من بعد ذلك، كما سنرى... كما أنّ المغاربة -ومعهم كان الأندلسيّون- يتمَذْهَبون بمذهب الإمام مالك بن أَنَس في الفقه الذي جاء إليهم من المدينة المنوّرة، وهذا تأثير آخر جاءهم عن طريق الْحُجّاج الذين كانوا يشرّقون قبل أن يعودوا إلى ربوعهم...

9 ـ حضرت إحدى الندوات الشعريّة في المشرق فزعمت لبعض شعراء المغرب العربيّ الذين حاضرين أنّ الشعر في المشرق أنضر وأرقى، فزعم لي أحدهم من تونس أنّ ذلك ليس صحيحاً، وكلّ ما في الأمر أنّ الإعلام في المغرب العربيّ ضعيف، ولا يعرف كيف يلمّع الشّخصيّات الأدبيّة! ونحن باقون على موقفنا في الوقت الرّاهن حيث الشعراء في المشرق أكثر عدداً، وأرفع مستوىً من حيث الشعريّة مقابل بروز عدد كبير من النّقّاد الحداثيّين المتألّقين في بلاد المغرب لقرب المغرب العربيّ من أوربا (نصف ساعة بالطّائرة بين الجزائر وإسبانيا، ودقائق بالطائرة بين المغرب وهذا البلد الأوربيّ...).

وفي حين كان الشعراء يملؤون الأرض في بلاد المشرق، سواء على عهد الدولة الأموية، أو على العهد الأوّل لدولة بني العباس، (وذلك بحكم أنّ انطلاق الحركة الشعريّة الأولى تعود في الجزيرة إلى قرون قبل أن يجيء اللّه بالإسلام...) [10] لم يظهر أوّل شاعر من المغرب العربيّ، في حدود ما بلغناه من الاطّلاع، وهو بكر بن حمّاد التّاهرتي (200-296)، إلاّ في النصف الأوّل من القرن الثالث للهجرة، ولم تتفتّق موهبته الشعريّة، في الحقيقة، وتَصْفُ قريحتُه، إلاّ حين هاجر إلى بغداد سنة 217 للهجرة حيث احتكّ بأكبر شعراء القرن الثالث للهجرة في بغداد أمثال أبي تمام الطّائي الذي كان صديقاً شخصيّاً له، وأبي نواس، وأبي العتاهية. ولكنّ بكر بن حمّاد بمقدار ما كان صديقاً لهؤلاء الثلاثة كان خصماً لدوداً لدِعبل الخزاعي الذي كان لا يرعوي في هَجْوِ الخلفاء العبّاسيّين، ومنهم المعتصم...[11] من حيث كان ينظر الشاعر الجزائريّ إلى أولئك الخلفاء نظرة تقدير وإكبار فكان يسوءُه فعْلُ دعبل...

وأمام التّأثير الثقافيّ المشرقيّ وغزارته وخصبه لم يكن بوسع المغاربة والأندلسيّين جميعاً إلاّ أن يؤلّفوا، إذا ألّفوا، في بداية أمرهم، كتبهم على غرار كتب المشارقة مُحاكِينَهم في مناهجهم، مقلّدينهم في

10 ـ ينظر الجاحظ مثلا، الحيوان، 6. 277 (تحقيق عبد السلام هارون) حيث ذكر أبو عثمان: "قد قيل من الشعر قبل الإسلام في مقدار من الدهر أطولَ ممّا بيننا اليوم وبين أوّل الإسلام".

11 ـ ينظر عبد الملك مرتاض، الأدب الجزائريّ القديم (دراسة في الجذور)، نشر دار هومه، الجزائر، 2000.

موضوعاتهم؛ وذلك لغلبة تأثيرهم فيهم، قبل أن يبلغوا مرحلة النّضج الفكريّ فيُبدعوا ويبتكروا، ويتفرّدوا بشخصيّتهم الثقافيّة المغربيّة الصّميمة. وممّن بدا التّأثير المشرقيُّ في كتبهم بارزاً أبو عليّ الحسن بن رشيق الْمَسَلِيّ (نسبةً إلى الْمَسيلة) الميلادِ، القيروانيُّ الدار، المتوفّى عام 456 للهجرة في كتابه "العُمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده"، وأبو إسحاق إبراهيم الْحُصْريّ المتوفّى عام 453 للهجرة في كتابه "زهر الآداب، وثمر الألباب". في حين كان أحمد بن عبد ربه الأندلسي المتوفّى عام 326 للهجرة ألّف كتاباً ضخماً جمع فيه نصوصاً أدبيّة مشرقيّة كثيرة على غرار كتابي "الحيوان"، و"البيان والتبيين" للجاحظ، و"عيون الأخبار" لابن قتيبة، فعلّق على ذلك الصاحب بن عبّاد بكلمته الشّهيرة حين اطّلع عليه: "هذه بضاعتنا ردّت إلينا"! فقد كان الصاحب يريد أن يقرأ أدباً مغاربيّاً لا يعرفه، ويمثّل شخصيّة المغاربيّين والأندلسيّين، لا ما جمع ابن عبد ربّه من نصوص المشارقة المعروفة. ولكنّ ذلك كان أمراً عسير التحقيق في بداية القرن الرابع للهجرة؛ وكان لا بدّ من الانتظار زمناً بعد ذلك لينطلق المغاربة إلى إبداع ثقافة تطبع شخصيّتهم، وتعبّر عن خصوصيّتهم في إطار الثقافة العربيّة العامّة. ذلك بأنّ هذه الكتب الثلاثة لم تذكر من نصوص أدب المغاربة إلاّ قليلاً، بل كان وهْمُ أصحابها منصرفاً إلى محاكاة "الحيوان" و"البيان والتبيين" و"عيون الأخبار" وغيرها، مما يشبهها...

ولم يشفع لابن عبد ربّه دقّة منهجه في تقسيم مادّة كتابه وتميّزه في ذلك عن أبي عثمان الجاحظ الذي كان يجنح، متعمّداً، للفوضى في تدبير مادّة كتبه...

وأمّا أبو الحسن علي بن بسّام المتوفّى عام 542 للهجرة فقد ألّف كتابه "الذخيرة، في محاسن أهل الجزيرة" على غرار كتاب "يتيمة الدهر، في محاسن أهل العصر" لأبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبيّ، كما لاحظ ذلك طه حسين في كتابة مقدمة كتاب الذخيرة حين قال: "دفع صاحبَه إلى تأليفه أمران: أحدُهما حبّه لوطنه الأندلس وحرصه على أن يُثبت لها تفوّقها في الأدب والعلم، وأن يثبت هذا التّفوّق لمعاصريه خاصّة لكثرة ما رأى من افتنان النّاس من أهل أُفُقِه بالشرق وأدبائه وعلمائه وإعراضهم عن الأندلس وما أنتجت من أدب وعلم. والثاني حرْصُه على تقليد الثعالبيّ في كتاب اليتيمة الذي صوّر فيه أدب معاصريه من الشعراء والكتّاب" [12].

وكانت ملاحظات طه حسين وجيهةً لأنّ محاكاة ابن بسّام للثعالبي تبدو واضحةً من عنوان الكتاب نفسِه الذي يتناصُّ فيه الآخِرُ مع الأوّل:

1 ـ في صياغة العنوان: الأول: "يتيمة الدهر، في محاسن أهل العصر"، والآخر: "الذخيرة، في محاسن أهل الجزيرة"؛ إذ نجد كلاًّ منهما يقيم عنوان كتابه على جملتين مسجوعتين، مع اصطناع الراء آخرَةً في اللّفظ...

12 ـ طه حسين، مقدّمة كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، لابن بسّام، 1. صفحة أ.

2 ـ في تناصّ ابن بسّام مع الثعالبي: الأوّل "في محاسن أهل العصر"، والآخر "في محاسن أهل الجزيرة".

3 ـ في مضمون الكتاب نفسِه حيث الأوّلُ يتناول أدباء عصره وشعراءَهم في أقاليم معيّنة من بلاد المشرق دون غيرها، في حين لا يأتي الثاني -ابن بسّام- إلاّ ذلك حين يَقصِر كتابه على متابعة الشعراء الأندلسيّين دون غيرهم.

4 ـ في أسلوب تقديم الشخصيّات: اللّغة الأنيقة نسْجاً، والأسلوب المسجوع تعبيراً، وذلك على الرغم من رقّة الأسجاع الأندلسيّة وأدناها إلى الشعريّة من أسجاع الثعالبي المتّسمة بالفخامة والمبالغة دون الشعريّة...

ذلك، وقد وَكَّدَ المحقّق محمد محي الدين عبد الحميد ما كان ذكر طه حسين منذ سنة 1939 في مقدّمة كتاب "يتيمة الدهر، في محاسن أهل العصر".[13]

ونستخلص من بعض نصّ طه حسين أنّ الأندلسيّين كانوا منصرفين بإعجابهم الشديد إلى المثقّفين المشارقة، ممّا حزّ في نفْس ابن بسّام القرطبيّ فحَمَله على أن يؤلّفَ ما يؤلّفُ لإثبات الذات، ويُظهر للمشارقة بعض ما لدى المغاربة، وكأنّه كان يريد أن يُنْشد مع الشاعر العربيّ القديم، حجَل بنُ نَضْلةَ الباهليّ:

13 ـ ينظر محمد محي الدين عبد الحميد، كتاب يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، 1. 13 ـ 14.

جاء شَقيقٌ عارضاً رُمْحَـه إنّ بني عمِّك فيهمْ رِمـاحْ![14]

أراد ابن بسّام، إذن، أن يثبت للمشارقة فضل المغاربة، من أهل الأندلس، فألّف كتابه الجميل. ولولا هذا الكتاب لضاع، في الحقيقة، من نصوص الأدب الأندلسيّ شعريّهِ ونثريّهِ شيء كثير.

مظاهر من تفوّق المغاربة بعد مرحلة التأثّر الأولى بالمشارقة

والحقّ أنّ العلماء المغاربة حاولوا التّفوّق في بعض المجالات التي قصّر فيها المشارقة، بعد مرحلة الاستيعاب والإعجاب معاً، ومن ذلك تفرُّدهم بتأسيس مدرسة نحويّة ولغويّة لعلّ أهمّ رجالاتها أبو الحسن عليّ بن أحمد بن سيده المتوفّى عام 458 للهجرة الذي يقول فيه –مع الأزهري– محمّد بن مكرّم بن منظور صاحب معجم "لسان العرب": "ولم أجِد في كتب اللّغة أجمل من تهذيب اللّغة لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري، ولا أكمل من المحكم لأبي الحسن عليّ بن إسماعيل[15] بن سيده الأندلسيّ، رحمهما اللّه. وهما من أمهات كتب اللّغة على التحقيق، وما عداهما، بالنسبة إليهما، ثنيّات الطّريق"،[16] فجعل ابن منظور ابن سيده في طبقة الأزهريّ. ومنهم علي بن محمد بن

14 ـ وشَقيق الذي ذكر الشاعر في هذا البيت، هو شقيق بن جَزْء بن رباح الباهليّ.

15 ـ نلاحظ أنّ السيوطي ذكر أنّ أباه أحمد، في حين أنّ ابن منظور ذكر أنّ أباه إسماعيل، بل من النّاس من يذهب إلى أنّ أباه محمد. ينظر السيوطي، م.م.س.، 2. 143.

16 ـ ابن منظور، مقدمة لسان العرب.

عليّ بن محمد نظام الدين أبو الحسن المعروف بابن خروف المتوفّى عام 609 ، [17] وعمر بن محمد بن عمر بن عبد الله الإشبيليّ المعروف بالشَّلَوْبين المتوفّى عام 645 ، وأحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن سعيد بن حُرَيْث بن مَضَاء الذي خالف النحاة في كثير من المسائل، واتّهمهم بالحشْو الذي أفضى إلى إتخام النحو العربيّ بقواعدَ قد لا يحتاج إليها المستعمِل، وتوقّف، خصوصاً، لدى مسألة العامل وحاول أن يُبطلها جملةً وتفصيلاً، وعدّها من تكلّف النحاة وتمحّلاتهم، وذلك في كتابه "الرّدّ على النحاة". [18] وقد خالفه في ذلك نحويّ أندلسيّ آخرُ وهو ابن خروف على سبيل المناقضة في كتابٍ عنوانُه: "تَنْزيه أئمّة النّحو، عمّا نُسِبَ إليهم من الخطأ والسَّهو" [19]. ولَمّا بلغ ابنَ مَضَاء "ذلك قال: نحن لا نبالي بالكِباش النّطّاحة، وتعارِضنا أبناءُ الخرفان"! [20] وحُقَّ لِمَنْ يُنزّه النّحاة عن الخطأ أن يقالَ فيه بعضُ ذلك!...

17 ـ ينظر السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، بغية الوعاة، في طبقات اللّغويّين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل، نشر عيسى البابي الحلبي، القاهرة، 1384–1965.

18 ـ حقّق هذا الكتاب شوقي ضيف، ونشرتْه دار الفكر العربيّ، القاهرة، 1947. هذا وقد ذكر عنوان هذا الكتاب السيوطي تحت عبارة: "الرّدّ على النحويين"، ينظر السيوطي، م.م.س.، 1. 323. وينظر أيضاً عبد الكريم بكري، ابن مضاء وموقفه من أصول النحو العربي، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، 1402–1982.

19 ـ نلاحظ أن ابن خروف يصطنع لغة تقديسيّة حين ينزّه النحاة عن الخطأ ويدّعي عصمتهم من السّهو، وهو موقف غير مقبول في العلم الذي يقوم على تلاقح الأفكار وتعارضها، لا على الواحديّة والتنزيه.

20 ـ السيوطي، م.م.س.

ومنهم أيضاً يحيى بن مُعْطٍ بن عبد النور أبو الحسن زين الدين الزَّواوي المتوفّى عام 628. وألفيّة ابن مُعْطٍ هي أوّل منظومة مؤلّفة من ألف بيتٍ في النحو العربيّ نسج عليها ابن مالك فيما بعد، وهو مغربيّ آخر استقرّ بدمشق وتوفي بها.

وكان ابن معطٍ آيةً في حفظ اللّغة العربيّة حتّى إنّ كتب التراجم تذكر أنّه كان يحفظ معجم الصحاح للجوهري عن ظهر قلب، وقد نظم كثيراً من الكتب لتيسير التّعلّم على النّاس. وناهيك أنّ محمد بن مالك يُثني عليه بعد أن زعم أنّ ألفيّته تفوق ألفيّة ابن مُعطٍ حين يستدرك في مقدّمة ألْفيّته قائلاً:

وهْو بِسَبْقٍ حائزٌ تفضيلاَ مُستوجِبٌ ثنائيَ الجميلاَ[21]

ومنهم أبو عبد اللّه جمال الدين محمد بن عبد اللّه بن مالك المولود بالأندلس عام 600 والمتوفّى بدمشق عام 672 صاحب الألفيّة

21 ـ كانت ظاهرة نظم الحقول المعرفيّة أمراً جارياً، وتقليداً تعليمياً قائماً، في بلاد الأندلس؛ فمن أشهر ذلك خارج المنظومات النحويّة والفقهيّة أرجوزة الأديب أبي طالبٍ عبد الجبار بن عبد الله بن أحمد بن أصبغ بن عبد الله (وينتهي في نسبه الأعلى إلى عبد الرحمن الداخل مؤسس الدولة الأمويّة بالأندلس) (ينظر أبو القاسم خلف بن عبد الملك المعروف بابن بشكوال، كتاب الصلة، في تاريخ أئمّة الأندلس وعلمائهم ومحدّثيهم وفقهائهم وأدبائهم، نشره السيد عزّت العطار الحسيني، القاهرة؟ 1374–1955) أطلق عليها: "عيون الإمامة، ونواظر السياسة" . وتوفي سنة 516 للهجرة) وأبو طالب من أهل جزيرة شُقْر. وكان يلقّب بالمتنبّي، فيما يذكر ابن بسام (الذخيرة، 2. 401). وقد أثبت ابن بسام نصّ هذه الأرجوزة العجيبة في ذخيرته: 2. 401–431. وقد حاولت أن أعُدّ أبيات هذه الأرجوزة العجيبة فألفيتها تبلغ ثلاثة وخمسين بيتاً وأربعمائة.

الثانية في النحو، وصاحب المؤلّفات النحويّة واللّغويّة الكثيرة، وهو الذي لم يذهب إلى المشرق إلاّ بعد أن كان جلس في النحو لأبي علي الشَّلَوْبين في إشبيلية. وهو أحد أكبر عمالقة النحو العربيّ إطلاقاً، وربما كان ابن مالك أنحى من كلّ النّحاة بعد سيبويه. ومنهم أبو عبد اللّه محمد بن محمد بن داود الصنهاجيّ بن آجرّوم (672-723) صاحب متن الآجروميّة الشهير، الذي وُلد في العام الذي تُوُفّي فيه ابن مالك فقيل من بعدُ: توفّي نحويّ، وولد نحويّ آخر!... وهو متن نحويّ مركّز وضعه في أهمّ قواعد النحو العربيّ تعلّمتْ منه أجيال متعاقبة طوال القرون الأخيرة في بلاد المغرب كلّها. والآجرومية هي أوّل كتاب يطبع باللّغة العربيّة في إيطاليا[22]؛ وقد شرحه عالم نحويّ آخر كبير هو أحمد بن عليّ ابن منصور البجائيّ (نسبة إلى بجاية) الذي انتقل إلى المشرق فكان يدرّس بالقاهرة، وتوفّي سنة 837 للهجرة...[23] فهؤلاء يشكّلون مدرسة نحويّة كبيرة في اللّغة العربيّة. وكلّ منهم خدم العربيّة على نحو أو على آخر خدمة جُلّى، مع تفاوت بينهم في القيمة المعرفيّة، ودرجة التّأثير.

ونستخلص من ذلك أنّ تأثير النّحاة المشارقة في المغاربة في المرحلة الأولى لم يظلّ تأثيراً عقيماً، بل بعد مرحلة التّأثّر والاستيعاب،

22 ـ توجد نسخة من هذه الطّبعة في مكتبة الملك فهد بالرياض.

23 ـ لا يزال هذا الكتاب مخطوطاً، وقد حققته الأستاذة بوعناني ونالت به درجة جامعيّة من جامعة وهران.

انتقل النحاة المغاربيّون إلى مرحلة التنظير والإبداع. والحقّ أنّ عدد النّحاة في بلاد المغرب كثير، ولكنّا اجتزأنا بأشهرهم وأكثرهم تأثيراً.

ولو انصرف الذهن إلى الفقه الذي أخذه المغاربة عن موطّأ مالك بن أنس المتوفّى سنة 179 للهجرة (وهو من تابعي التابعين) لألفيناهم، بعد أن هضموا مسائلها التي اتّخذتْ سبيلاً وسطاً بين التساهل والتشديد، ينبرون إلى تلخيصها بشكل تعليميّ برّز فيه المغاربة والأندلسيون وهو نظْم الكتب الفقهيّة والنحويّة والمنطقيّة والْمُعجميّة وغيرها في منظومات تختصر مطوّلاتها، وتقيّد مُطْلَقاتها... ولكن قبل ذلك كان المفكّر العالميّ الفقيه الفيلسوف الطّبيب محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد ابن رشد القرطبيّ (520-595) ابتدع ضرباً من الكتابة الفقهيّة في كتابه "بداية المجتهد، ونهاية المقتصد"، لم يُسبق إليها. وتقوم منهجيّته فيه على عرْض المسألة الفقهيّة كما وردت في أصل مذهب الإمام مالك، ثمّ لا يزال يتابعها لدى أئمّة المذاهب الأخرى وكبار فقهائها، مع تبيان المستندات التي استندوا إليها في إقامة مذاهبهم من الحديث خصوصاً وذلك كلّه من أجل نبْذ التقليد، والدّعوة إلى الاجتهاد الواعي... لأنّ الفقهاء كادوا ينسَون الأصول فظلّوا يذكرون آراء الفقهاء المتأخّرين، دون الرجوع إلى أصول الشريعة الإسلاميّة (القرآن والحديث). وكانت الغايةُ من تأليف كتاب ابن رشد تِبيانَ أسرار الاختلاف بين أئمّة المذاهب الأربعة القائم على الاختلاف في تأويل الأحاديث النبويّة وسيرة الرسول صلى اللّه عليه وسلّم. وقد أظهر فيه من سَعة الاطّلاع،

ومن التبحّر في الفهم والمقارنة بين المذاهب والنّصوص ما لم يأْتِهِ إلاَّهُ. وهو ضرْبٌ من الإبداع الفقهيّ جديد عجيب.[24]

ولم يجتزئ ابن رشد بذلك حتّى نظم متناً فقهيّاً أطلق عليه "مقدّمة" على مذهب الإمام مالك شرحها محمد بن إبراهيم التّتائيّ.

ومن الفقهاء الذين كان لعملهم تأثير كبير، وقد حذا في سيرته التعليميّة حذو ابن رشد، أبو محمد عبد الواحد ابن أحمد بن عليّ بن عاشر الفاسيّ الدّار، الأندلسيّ الأصل، المالكيّ المذهب، المتوفى عام 1040 للهجرة حين نظم أهمّ قواعد الفقه في أربعة عشر بيتاً وثلاثمائة بعنوان: "المرشد المعين، في الضروريّ من علوم الدّين".[25] في حين نجد أبا محمد عليّ بن أحمد بن حزم الظاهريّ المولود في قرطبة سنة 384 للهجرة والمتوفّى سنة 548 نجده يبدع في كتابة كتابه: "الفِصَل، في الملل والأهواء والنّحل"[26]، وهو أوّل كتاب في تاريخ الأديان المقارنة.

---

24 ـ طبع الكتاب أوّل مرّة بالقاهرة، ثمّ طبع ببيروت، نشر دار ابن حزم، 1999.

25 ـ شرح هذا المتن الفقهيّ العجيب الذي كان جميع المتعلمين في المغرب والجزائر يحفظونه كما يحفظون متن آجرومية ابن آجروم، ومتن ألفيّة ابن مالك... محمد بن أحمد ابن ميّارَة المالكيّ بعنوان: "الدّرّ الثمين، والمورد المَعين". وهو متداوَل بكثرة بين الفقهاء.

26 ـ ذكر ابن خلدون هذا الكتاب تحت عنوان مختصر هو "الملل والنحل"، وذكره المشرف على النّصّ تحت عنوان: "الفِصَل، في الملل والنّحل"، ينظر ابن خلدون، المقدمة، ص. 357. وربما ذكر الأجانب الشّديدو الإعجاب بابن حزم كتابه تحت عنوان: "الفِصَل"، ينظر:

Encyclopedia universalis, T. 7. .732-734.

وعلى الرغم من أنّ ابن حزم خالف الجماعة حين أنكر القياس في الفقه مع مجموعة من العلماء فإنّه ترك آثاراً على الاجتهاد في الفقه بالذهاب إلى تأويل النّصّ الشرعيّ على ظاهره. ويزعم ابن خلدون أنّ مذهب الظّاهريّة درَس على عهده، وأنّ كتب ابن حزم كان يُحظر بيعُها في الأسواق[27]. ونحن الذي يعنينا هنا أنّ الفقه المالكيّ الذي اقتصر في بداية أمره بالأندلس والمغرب على العبادات، انتقل إلى المستوى اللاّهوتيّ "التيولوجيا"، فانتقل الناس من مجرّد الحفظ والفهم، إلى مستوى الإبداع والنّقد، والخوض في ماهيات الأديان، وفضْح الإسرائيليّات كما في "الفِصل"... وببعض ذلك يتبيّن أنّ المدرسة الفقهيّة ببلاد المغرب ابتدأت بالتقليد والتحصيل، ثم الفهم والاستيعاب، ثم الانتقال إلى الإبداع على غرار تفسير القرآن للقرطبي، كتابات ابن رشد في تأصيل الفقه (بداية المجتهد، ونهاية المقتصد)، وابن حزم على طريقته في فهم النّصوص على ظاهرها (الفِصَل، في الملل والأهواء والنحل).

ونختم هذه العجالة التي تتناول العلاقة الثقافيّة بين المُشرق والمغرب، بما أبدعه عالمان مغربيّان كبيران: أحدهما عبد الرحمن بن خلدون في مقدّمته العجيبة التي كتبها بضواحي تاهرت بالجزائر. فهي أوّل عمل في التاريخ البشريّ يتناول نظريّة العمران، أو فلسفة الاجتماع،

27 ـ ينظر ابن خلدون، المقدّمة، ص. 801.

فكان فكراً متفرّداً في التّاريخ وثب به إلى العالَميّة والخلود. ولكن من السذاجة أن يعتقد معتقد أنّ ابنَ خلدون بنَى نظريّة العمران وفلسفة التاريخ على عدم، وانطلق فيها من فراغ ثقافيّ جدْب، بل إنّا نعتقد أنّ الكتابات التاريخيّة السابقة في المشرق العربيّ انطلاقاً من ابن إسحاق، وابن سعد الزهريّ في "كتاب الطبقات الكبير" إلى المسعودي (مروج الذهب، ومعادن الجوهر)، إلى أبي جعفر محمد بن جرير الطبريّ في كتابه "تاريخ الأمم والملوك"، إلى أبي الفدا إسماعيل بن كثير في كتابه: "البداية والنهاية"... قد تكون هي التي ألهمتْه -بالإضافة إلى تجاربه ومشاهداته وتأمّلاته- بأن يبنيَ على أنقاضها، وقد نقَد كثيراً منها، ما بنى.

وأمّا العالم الآخر فهو أبو الحسن حازم القرطاجنّي المتوفَّى بتونس سنة 684 للهجرة الذي أبدع في النقد الأدبيّ في كتابه: "منهاج البلغاء، وسراج الأدباء"؛ وذلك بعد أن كان تشبّع بكل النظريّات والأفكار والآراء التي بذلها النقاد والبلاغيّون المشارقة انطلاقاً من مقدّمة ابن قتيبة في كتابه: "الشعر والشعراء"، إلى عبد القاهر الجرجاني في كتابيه "أسرار البلاغة" و"دلائل الإعجاز"، إلى علي بن عبد العزيز الجرجاني في كتابه: "الوساطة بين المتنبي وخصومه"، إلى قدامة بن جعفر في كتابه "نقد الشعر"، إلى ابن الأثير في كتابه "المثل السائر، في أدب الكاتب والشاعر"، وربما تأسيساً على بعض جهود ابن رشيق في العمدة أيضاً...

وكذلك ابتدأت الثقافة المغربيّة تلميذةً للثقافة المشرقيّة تُقلّدها طوراً، وتحاكيها طوراً آخر؛ ثم بلغت مرحلة الاستيعاب والتّفهم، وبعدها انطلق المغاربة إلى إبداع حقيقيّ أثرى الثقافة العربيّة فأضاف إليها في الفلسفة والطّب والفقه والنحو والمعجميّة والنقد والتاريخ وفلسفة الاجتماع.

دور المشارقة في نشر اللّغة العربيّة في الجزائر

إنّنا نفترض، في غياب الكتابات التاريخيّة الدقيقة عن هذه المسألة أنّ اللّغة العربيّة في الجزائر ابتدأتْ في الانتشار والشيوع بين السكّان انطلاقاً من أواخر النصف الأوّل من القرن الثاني للهجرة على الأقلّ؛ وذلك حين وقع تأسيس الدولة الرستميّة التي آثرت لغة الدين الإسلاميّ، والقرءان: لساناً لها لاتّفاق الجزائريّين يومئذ عليها، على أساس أنها الأداة المعرفيّة التي تمكّنهم من الإلمام بالشريعة الإسلاميّة وأصولها بوجه مباشر، بالإضافة إلى أنّ العربيّة كانت اللّغة الأولى في العالم، بالإضافة إلى أنّها كانت تتيح لهم الإفادة من الثقافة العربيّة المشرقيّة الرفيعة التي كانت في أزهى عصورها، بالإضافة، أيضاً، إلى أنّها تتيح للدولة الرستميّة أن تقيم علاقات "مفهومة" مع الدولة الأمويّة في الأندلس. ونفترض أيضا أنّ انتشار العربيّة في الجزائر مكّن له النشاط التعليميّ المتجسّد في تلقين الفقه، وتفسير القرءان، وتأويل الحديث، وتحفيظ نصوصهما للناشئة أساساً، وتنشيط البعثات العلميّة إلى بلاد

المشرق. وكلّ ذلك له علاقة وُثْقى بدور المشرق العربيّ في نشر اللّغة العربيّة بالجزائر.

وعلى الرغم من ذلك، فإنّه لا ينبغي أن يُنْظَرَ إلى هذا الدّور نظرة مباشرةً فيقعَ الحديثُ عن الكتّاب والأدباء والمعلّمين المشارقة الذين ذهبوا إلى الجزائر لتعليم اللغة العربيّة في عهد الاستقلال (أي ابتداءً من سنة 1962)؛ فلو انطلقنا من هذه الرّؤية لخشِينا أنّنا نغمِط حقّ المشارقة في الاضطلاع بهذا الدّور، لأنّنا، حينئذ، لا نأتي إلاّ على ذكْر أَحَدِ وجهَي هذا الدور، دون ذكْر الوَجه الآخر الذي قد يكون أعمق وأخصب. من أجل ذلك ارتأينا أن نعود بجوهر هذه المسألة إلى أصلها الأوّل لكي نحاول الإلمام، ولو بإيجاز شديد، ببعض أطرافها.

كيف وقع تعريب الجزائريّين في العهود الأولى من اعتناق الإسلام؟

لعلّ من حقّ منهج التفكير العلميّ علينا أن نثير طائفةً من الأسئلة عن هذه القضيّة مثل: متى عرفت الجزائر أوّل حركةٍ لتعلّم اللّغة العربيّة ثمّ استعمالها في حياتها الثقافيّة، ثم في حياتها اليوميّة والعامّة معا، والحال أنّ سكّانها الأصليّين هم أمازيغيّون؟ وهل صاحَبَ نشْرُ اللّغة العربيّة نشراً منهجيّاً الفتحَ الإسلاميّ للجزائر الذي وقع الشروع فيه منذ عهد الخليفة الراشديّ الرابع؟ وكيف تمّ نشر اللّغة العربيّة على نحو واسع فإذا الجزائر قطرٌ يتحدّث العربيّة كأيّ قطر عربيّ آخر مشرقاً ومغرباً؟

ثمّ كيف استطاعت العربيّة أن تستأثرَ بألسنة الجزائريّين على حساب اللّغة الأصليّة -تامازيغْت- ، دو "تبشير لغويّ"، ودون استعمال أيّ وسية ضغطٍ على النّاس لينسلخوا عن لغتهم الأصليّة ويتعلّموا لغة القرآن، ولغة العالم الأولى يومئذ، فإذا هي تزيلها من ألسنة الجزائريّين إلاّ ما كان من منطقة القبائل وما يجاورها؟ ثمّ لِمَ انقرضت الأمازيغيّة من ألسنة الجزائريّين الأصليّين في أرجاء مختلفة من القطر الجزائريّ وانحصرتْ في هذه المنطقة وحدها؟...[28]

لقد كانت أوّل مبادرة منهجيّة لاستعمال اللّغة العربيّة هي التي تمّت في أجهزة الدولة الرستميّة بمدينة تاهرت وما كان تابعاً لها من أقاليم، كما ذكرْنا ذلك منذ حين. وعلى الرغم من أنّ مؤسّس الدّولة عبد الرحمن بن رستم كان فارسيّاً في عِرقه، وأسس دولته في بيئة بربريّة، إلاّ أنّه كان عربيّاً في لسانه. ولقد رأى بذكائه ودهائه أنّ الفارسيّة لم تثبت في المشرق، فكيف يمكن أن تثبت في بلاد المغرب، وأنّ التاهرتيّين - وكلّ سكّان إفريقيا الشماليّة- أصبحوا يدينون بالإسلام الذي دستوره القرآن، فقرّر اللّغة العربيّة لغةً رسميّة في دواليب دولته الفتيّة. وتلك أكبر مبادرة لتعريب الجزائر في التاريخ المبكّر. (قامت الدولة الرستميّة في تاهرت فيما بين 146-296 للهجرة). ولقد ثبت أنّ بعض أمراء بني

28 - ينظر عبد الملك مرتاض، المسيرة التاريخيّة للتعريب في الجزائر، في مجلّة الثقافة، الجزائر، ع.4، 1971، ص.34-50.

رستم، منهم أبو حاتم، كانوا يشجّعون العلماء والشعراء والمثقفين؛ فكانت "وفود الخطباء والشعراء"[29] لا تزال تقوم "بين يديه، تعدّد أياديَه، وتنشر مناقبه" [30]. وواضح أنّ اللّغة الأدبيّة التي كان الشعراء والخطباء والعلماء يخاطبون بها أبا حاتم الرستمي كانت هي العربيّة، مما يدلّ على بكور استعمال اللّغة العربيّة في الجزائر.

وأمّا المبادرة الكبرى الأخرى، الحقيقيّة، فلم تكن إلاّ باكتساح قبائل بني رياح، وبني سليم، وبني هلال المغربين الأدنى والأوسط (تونس والجزائر حالياً)، فتصاهروا مع الجزائريّين وتخالطوا معهم فوقعت المعايشة الشعبيّة، وهي السيرة التي أفضت إلى تعريب الجزائر تعريباً كاملاً فيما عدا المناطق الجبليّة ومنها منطقة القبائل حيث لم تصلها القبائل العربيّة المهاجرة، لإيثارها المقام في السهول من وجهة، والمناطق الصحراويّة أو الشبيهة بها من وجهة أخرى. وقد وقعت هذه الهجرة الكبرى من مصر إلى نحو إفريقيا الشماليّة في بداية القرن الخامس الهجري، كما ذكر ذلك ابن خلدون [31]على الرغم من أنّه ذكر هذه القبائل بسوء كثير، زاعماً أنّها كانت تخرّب العمران، وتقوّض البنيان، وأنّ بلاد المغرب كابدت الأمرَّيْن منها حيث دمّرتْ كلّ عمرانه

29 ـ الباروني، سليمان بن الشيخ عبد الله النفوسي، الأزهار الرياضيّة، في أئمّة وملوك الإباضيّة، القسم الثاني، المطبعة البارونيّة، القاهرة، 1324-1904، ص.186.

30 ـ م.س.

31 ـ ينظر عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، ص. 265، نشر مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني، بيروت، 1967، ط.3.

بعد أن مضى عليها فيه ثلاثةُ قرون ونصف[32] (إلى عهد ابن خلدون). ونحن لا ندري ما منع ابنَ خلدون مِن أن ينظر إلى النتائج الحسنة التي تولّدتْ عن استيطان هذه القبائل أرض المغرب العربيّ؟ وهل كان يمكن أن يتعرّب المغاربة، والجزائريّون خصوصاً، بتلك السرعة لولا هذه القبائل العربيّة التي شاء القدر أن تكون هجرتها إلى إفريقيا الشماليّة بمثابة الفتح الثاني، والنهائيّ: الأوّل اقتصر على نشر الإسلام، والآخر امتدّ إلى نشر لغة القرآن؟...

أثر الرحلة في نشر اللّغة العربيّة في الجزائر

لقد "ظلّت الرحلة في طلب العلم مظهراً مشرّفا ونبيلاً في الثقافة العربيّة الإسلاميّة حيث ظلّ الناس يتبادلون الرحلة من المشرق إلى المغرب، ومن المغرب إلى المشرق خصوصا، للكُروع من ينابيع المعرفة، والسماع من أكابر العلماء والمفكّرين ومُجالساتهم، ومناقشاتهم: فيما كان يعرض لهم من مسائل العلم، وقضايا المعرفة. ويبدو أنّ تقاليد التعليم على تلك العهود كانت تُؤْثِر السماع من أفواه العلماء على قراءة كتبهم؛ فكان المتعلّمون، أو قل: طُلاّب العلم على الأصحّ، يلتمسون مشافهة الرجال، والإتّصال بهم شخصيّا. وكانوا يفتخرون بذلك ويتباهَوْن...

32 - م.س.

ولعلّ أوّلَ رحلةٍ، احتفظ بها التاريخ، قام بها مثقّف جزائريّ إلى بلاد المشرق؛ تلك المتجسّدة في رحلة بكر بن حمّاد الزناتيّ الذي كان باكر إلى النهوض بهذه الرحلة إلى بغداد وهو في سنّ السابعةَ عشرَ ربيعاً. والحقّ أننا لا نعرف كبير شيء عن خلفيّات هذه الرحلة ودوافعها الحقيقيّة؛ فهل كانت ضرْباً من الهروب من مدينة تاهرت خشية بعض الاضطهاد المذهبيّ؟ أم أنّ دوافعها كانت معرفيّة خالصة؟ وأيّاً كان الشأن، فإنّ المساءلة الأولى تظلّ مجرّد افتراض حتى تُثبتَها الوقائع التاريخيّة التي صمتت عن الكثير، ولم تفصح إلاّ عن القليل، ولا نحسبها ستنطق في يوم من الأيام فتخبرَنا بحقائق الأشياء التي بعُدَ عهدها بنا، وعهدُنا بها..."[33].

لقد كنّا ذكرنا في بعض هذه الكلمة، من قبل، أنّ بكر بن حمّاد التاهرتيّ[34] ذهب إلى بغداد وهناك تفتّقت قريحته لقول الشعر، كما روي الحديث عن علمائه فسمع "بالمشرق ابن مسدّد، وعمرو بن مرزوق،

33 ـ عبد الملك مرتاض، م.م.س.، ص. 38.

34 ـ تقع مدينة تاهرت إلى الجنوب الشرقيّ من مدينة وهران، وتبعد عنها أكثر من مائتي كلم. وهي أوّل مدينة إسلاميّة في بلاد المغرب، بعد الأندلس، تتأسس فيها الدولة الرستميّة الإباضيّة التي تبنّت اللّغة العربيّة فجعلتها هي اللّغة الرسميّة للدولة. وقد نشأ أوّل شاعر عربيّ اللّسان في بلاد المغرب، وهو بكر بن حمّاد في أحضان هذه الدولة ذات الثقافة العربيّة، ولكنّه لم يصبح شاعراً مشهوراً إلاّ حين غادر إلى بغداد فمكث فيها عهدا طويلاً نقدّره بعشرات السنين دون أن نستطيع تحقيقه في غياب الوثائق التاريخيّة الدّقيقة... ولما احتل الفرنسيون الجزائر حرّفوا اسم هذه المدينة التاريخيّة ليتناسب مع منطوق لغتهم فقالوا: "تْيَارَت". وهو الإطلاق الأجنبيّ الذي لا يزال اليوم متداوَلاً . (ينظر عبد الملك مرتاض، الأدب الجزائريّ القديم، بحث في الجذور، دار هومه، الجزائر، 2000).

وبشر بن حجر"،[35] فكان "بتاهرت من حفّاظ الحديث، وثقات المحدّثين المأمونين"[36] حتى أصبح فيه حجّة، فكان الأندلسيون يرتحلون إليه بأعداد كثيرة حين كان مدرّساً بالقيروان لرواية الحديث عنه.[37] ثمّ نشطت رحلة المغاربة إلى المشرق لطلب العلم، ومن ذلك رحلات الجزائريّين لهذه الغاية نفسها، فلم يكن المثقف الجزائريّ يعدّ نفسه مثقّفاً مكتمل الثقافة إلاّ إذا قام بالرحلة إلى بلاد المشرق ليحجّ ويتّصل بالعلماء المشارقة. ولقد ظلّت هذه السيرة قائمةً إلى النّصف الأوّل من القرن العشرين حيث نجد أكبر الكتّاب الجزائريّين ومفكّريهم ينهضون بهذه الرحلة أمثال الشيخ الطّيّب العقبي الذي ذهب مع والده إلى الحجاز فجاور في المدينة المنوّرة زمناً طويلا وعلّم في حرَمها النبويّ. كما تولّى في مكّة انطلاقاً من سنة 1913 رئاسة تحرير جريدة "القِبْلة" خلفاً للمفكّر الإسلاميّ محبّ الدين الخطيب، كما تولّى في الوقت نفسه إدارة المطبعة الأميريّة،[38] قبل أن يعود بعد الحرب العالميّة الأولى، وهو مؤسس لمجموعة من الصحف منها "الإصلاح". وكان العقبيّ شاعراً وكاتباً ومصلحاً دينيّاً جميعاً. ولا يقال

35 ـ ياقوت الحموي، معجم البلدان، تاهرت، 2. 355.

36 ـ م.س.

37 ـ ينظر ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب، في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة ج.س. كولان، إ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، 1948.

38 ـ ينظر عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر (من صدر الإسلام حتّى العصر الحاضر)، ص. 238-239, نشر مؤسسة نويهض الثقافيّة، بيروت، 1400-1980, ط.2.

إلاّ بعض ذلك في أحمد رضا حوحو الذي اغتاله الفرنسيّون عام 1956 -وهو أوّل قاصّ ومسرحيّ وروائيّ يكتب باللّغة العربيّة الفصحى أعماله الأدبيّة- فقد رحل إلى الحجاز وظلّ يحرّر في مجلّة "المنهل" قبل أن يعود ليؤسّس جريدة "الشّلعة" بقسنطينة، ويصبح أميناً عامّا لمعهد ابن باديس الذي كان المؤسسة الوحيدة التي كانت تعلّم اللّغة العربيّة في أعلى مستوياتها (1947-1956 وهي السنة التي أغلقه فيها الفرنسيّون) في الجزائر على عهد الاستعمار الفرنسيّ.

وأمّا محمد البشير الإبراهيمي فقد انتقل إلى الحجاز فجاور في مكة والمدينة، وهنا تعرّفَ الأستاذَ عبد العزيز الرشيد، والعلاّمة أحمد بن الأمين الشنقيطي فكانوا يتناشدون الأشعار، ويتبارَون في استظهار نصوص المعلّقات أيّهم أكثر حفظاً لها..[39]. ثمّ علّم بدمشق حيث يزعم جميل صليبا، وهو أحد تلامذته بالمدرسة السلطانيّة بدمشق، أنّ محمّداً البشير الإبراهيمي هو الذي حبّب إليه ولصِحابه، تعلّم اللّغة العربيّة، وتذوُّق آدابها إذ يقول: "أُعْجِبنا بسَعة علمه، وقوّة ذاكرته، واستقامة منهجه؛ لأنّه كان يُمْلي علينا قصائد المتنبي والبحتري وأبي تمام على ظهر القلب من أوّلها إلى آخرها، ويقرّب معانيَها منّا بالتفسير المحكم، والشرح الدّقيق، والتحليل الأدبيّ الجميل حتّى ولّد في نفوسنا حبّ اللّغة العربيّة وآدابها"،[40] وذلك قبل أن يعود إلى الجزائر

39 ـ ينظر محمد البشير الإبراهيمي، في الفضيل الورتلاني، الكويت: المدينة الفاضلة، أو سويسرا العرب، ص. 239.

40 ـ جميل صليبا، في ذكرى الإبراهيمي، مقالة منشورة في مجلّة الثقافة، الجزائر، ع. 8-9، 1972، ص. 100.

ليرأس تحرير جريدة البصائر (1947-1956)، وهي أعلى الجرائد الجزائريّة لغةً، وأجملها أسلوباً، في الجزائر -على عهد الاستعمار الفرنسيّ- على الإطلاق؛ وليرأس جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين خلَفاً لعبد الحميد ابن باديس الذي لم تكتمل شخصيّته العلميّة وتتبلور ملامح التفكير الإسلاميّ لديه، هو أيضاً، إلاّ بعد أن رحل إلى الحجّ، وجاور في المدينة، قبل أن يعُوجَ على الأزهر فيتّصل برجالاته، ومنهم الشيخ بخيت، وهو عائد في طريقه إلى الجزائر حيث أسس أشهر مجلّة فكريّة في مدينة قسنطينة على عهد الاستعمار الفرنسيّ، وهي مجلّة "الشهاب" (1925-1939).

والحقّ أنّ الرحلّة العلميّة التي ابتدأت بالشاعر بكر بن حمّاد التاهرتيّ ظلّت مستمرّةً فكان بعض العلماء يقومون بهذه الرحلة ليتشبّعوا بالعلم في حواضر الثقافة العربيّة الأصيلة، ولاسيما دمشق وبغداد، والمدينة، فكانوا يعودون لتعليم ما تلقّوه في مراكز الثقافة والعلم في الجزائر. غير أنّ بعضهم، إن لم نقل كثيراً منهم، كانوا يستعذبون الإقامة في بلاد المشرق فلا يعودون (ابن منظور الذي ظلّ بمصر حتّى توفّي فيها، وابن مُعْطٍ الزواويّ الذي لم يمنعه أصله البربريّ من أن يتفوّق في العربيّة والنحو فيصبح فيهما حجّة، فيكتب ألفيّة في النحو بزّتها، من بعد ألفيّة مغربيّ آخر هو ابن مالك... فقد استسعد الإقامة بدمشق حتّى توفي بها...). وما ذكرْناه هو مجرّد تمثيلٍ لأحوال كِثَارٍ.

إنّ الحديث عن دور المشارقة في نشر اللغة العربيّة، في الجزائر، لا يمكن البدء به، بكيفيّة فطيرة، من بعثات التعليم المشرقيّة التي وقعت في عهد الاستقلال، والتي سنتناولها لاحقاً، في هذا الحديث... إذ لو لم تكن هذه الصلات الثقافيّة قويّة منذ العهود الأولى للفتح الإسلاميّ لبلاد الجزائر، وذلك باستجلاب الكتب من بلاد المشرق قبل الشروع في التّأليف لَما انتشرت اللّغة العربيّة على النحو الذي اغتدى الجزائريّون في معظمَهم يتحدّثون اللّغة العربيّة حيث تعرّب السّكّان بمحض إرادتهم منذ القرون الأولى بعد الفتح. وناهيك أنّ الدّولة الرستميّة كانت تستجلب أمهات الكتب من بلاد المشرق حيث "كان الرستميّون يجتهدون في نقل كلّ ما يصدر من كتب ذات شأن في الشرق العربيّ؛ حتّى إنّ عبد الوهاب بن عبد الرحمن الرستميّ اشترى من البصرة في دفعة واحدة حِمْلَ أربعين بعيراً من الكتب[41]؛ وهي الأحمال التي نقدّرها بالوزن العصري بما لا يقلّ عن عشرة أطنان من الكتب ابتِيعت من البصرة في مجرّد دفعة واحدة...

ولقد أُودعت هذه الكتب وسَواؤُها، قبلها أو بعدها، في أوّل مكتبة عموميّة أُسّست في تاهرت؛ وهي المكتبة التي أُطلق عليها: "المعصومة"[42].

41 ـ ينظر مبارك بن محمد الهلاليّ الميليّ، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، 2. 68, نشر مكتبة النهضة، الجزائر، 1963.

42 ـ عبد الملك مرتاض، م.م.س.، ص. 45.

واستخلاصاً من بعض ما تقدّم يتبيّن لنا أنّ دور المشارقة في نشر اللّغة العربيّة في الجزائر ابتدأ منذ القرن الأوّل للهجرة وظلّ مستمرّاً تحت أشكال مختلفة، وبوسائل متنوّعة: إمّا بالكتب التي كانت تستجلب من المشرق، وإمّا بالبعثات التي كانت تذهب إلى المشرق لتتعلّم، فتعود إلى الجزائر لنشر العربيّة ومن خلالها المعرفة والثقافة، وإمّا بما تمّ من استقرار بعض أوائل الفاتحين العرب على الرغم من ضآلة المعلومات التي تُثبت ذلك...

إسهام المدرّسين المشارقة في نشر اللّغة العربيّة في الجزائر

لقد سبق لنا التّأسيس لهذه المسألة من خلال عرض تاريخيّ وجيز لمسيرة انتشار اللّغة العربيّة في الجزائر فلم يمضِ القرن الثاني للهجرة حتّى أصبح في الجزائر شعراء باللّغة العربيّة. ولم يمض على ذلك إلاّ قرون حتّى أصبح الجزائريّون ينظّرون للنّحو العربيّ من خلال نحويّهم الكبير ابن معطٍ، وبعده أحمد بن عليّ ابن منصور البجائيّ... وجاء العصر الحديث فكان الأمير عبد القادر يقاوم المحتلين الفرنسيين بالسيف والشعر، حتّى شبّهه بعض الدارسين الجزائر بمحمود البارودي. وجاء القرن العشرين فتوسعت الرحلة العلميّة إلى المشرق وتعددت، كما أسهم توزيع الكتب والمجلاّت التي كانت تصدر

بالمشرق في ازدياد انتشار العربيّة، بالإضافة إلى بعض الرّحلات الثقافيّة التي قام بها المشارقة منذ بداية القرن العشرين إلى الجزائر، ومن أهمّها إطلاقاً زيارة الشاعر أحمد شوقي التي كانت سنة **1903** فيما نحسب، ولكنّه لم يجشّم نفسه تكلّف الاتّصال بالمثقفين الجزائريّين "ولم يتصل هؤلاء به أيضاً، فتلاوم الطّرَفان بعد فوات الأوان"[43]، فاتهم هو الجزائريّين بأنهم كانوا يجهلون اللغة العربيّة، من حيث اتهمه هم بأنّه تسرّع في حكمه فلم يكن فيه منصفاً؛ إذ استدلّ على الشعب الجزائريّ بمسّاحي الأحذية منه![44] على عكس الشيخ محمد عبده الذي زار الجزائر عام1905[45] (أي في السنة التي تُوفي فيها)، وألقى دروساً

43 ـ عبد الملك مرتاض، الجدل الثقافي بين المغرب والمشرق، ص.74.

44 ـ م.س.

45 ـ ينظر عمار طالبي، آثار ابن باديس، 1. 25 وما بعدها. ومن الوفود والشخصيات التي وفدت على الجزائر، وهي ترزح تحت نيّر الاستعمار الفرنسي، في النصف الأول من القرن العشرين بعد هاتين الشخصيّتين: الممثلة المصرية فاطمة رشدي سنة 1932, وقد احتفل بها الأدباء الجزائريون وأقاموا لها حفل استقبال فاخر بنادي الترقّي بمدينة الجزائر؛ وسامي شوا، وهو عازف على الكمان، ورئيس فرقة موسيقيّة مصريّة، زار الجزائر سنة 1932 أيضاً. وكان سامي شوا أديباً إلى جانب كونه موسيقاراً، كما يفهم ذلك من نصوص إعلاميّة جزائريّة... ثمّ يوسف وهبي –سنة 1947, 1950, 1951, 1952– الذي بايع البشير الإبراهيمي، في إحداها، على أنّه ملك العربيّة. ووضع له أهل تلمسان تمثالاً من الحلوى، ثمّ فريد الأطرش –سنة 1951– الذي أسف "أن لا يعلم الشرق عن هذه النهضة المباركة في الشمال الإفريقيّ مثل "ما يعرفه الجزائريون عن هذا الشرق... ومن ذلك زيارة فرقة جورج أبيض –1921– التي كانت تتألفّ من ثلاثة وعشرين ممثلاً منهم حسين رياض، ومحمد عطيّة، وعباس فارس. ومن الوفود المشرقيّة الأخرى التي وفدت على الجزائر وفد إعلامي مصري –1950– يتكوّن من أكثر من عشرة شخصيات من بينهم عزيز مرزه رئيس تحرير جريدة الأهرام، والدكتور عبد الحميد يونس من كلية الآداب بجامعة القاهرة، وأنطون نجيب رئيس تحرير جريدة المقطّم، وحبيب جاماتي ممثلاً لدار الهلال... نقول ذلك حتّى تكتمل صورة التبادل الثقافي بين الجزائر والمشرق العربيّ. . ينظر عبد الملك مرتاض، م.س.ص.72– 99.

ببعض مساجدها، كما أقام علاقات طيّبة مع بعض علمائها منهم الشيخ عبد الحليم بن سماية، وراسله من القاهرة.

ولقد أفضى تلقّي المنشورات المشرقيّة من مجلات وكتب، بانتظام، إلى تأسيس صحف عربيّة أنافت على الخمسين في النصف الأوّل من القرن العشرين. كما أثارت شدّة عناية الجزائريّين بالكتب المشرقيّة غيرة بعض المثقفين الجزائريّين فكتب فرحات الدراجي مقالة بعنوان: "كلمة عتاب إلى إخواننا الشرقيّين"[46] وقد كتب ذلك حين لاحظ أنّ بعض المشارقة يخطئون في كتابة أكبر المدن الجزائريّة فيطلقون على وهران "أُورَان"، وعلى قسنطينة "قُسنطين"! في حين يذهب أبو يعلى الزواوي وهو أحد الذين ارتحلوا إلى المشرق العربيّ وأقاموا فيه طويلاً، يذهب إلى أبعد من ذلك حين يكتب مقالة حامية بعنوان: "اشتغالنا بالشرق أنسانا أنفسنا"![47]

ولعلّ كلّ هذه الكتابات وهذه العلاقات تبرهن على أنّ المشرق العربيّ كان حاضراً في أذهان الجزائريّين، وأنّ ذلك لا يعود إلى تأثير هذا المشرق فيهم؛ فكان طبيعيّاً حين نالت الجزائر استقلالها في صيف سنة 1962 أن تستعين بالإخوة العرب في المشرق في نشر اللّغة العربيّة وتدريسها للناشئة الجزائريين، فلم يقصّر الإخوة المشارقة في ذلك. فقد توافدت على المدارس الابتدائيّة والثانويّة الجزائريّة ـ ثمّ الجامعة

46 ـ جريدة البصائر، ع.89 في 3. 12. 1937، ص. 2.

47 ـ ينظر أبو يعلى الزواوي، م.م.س.

فيما بعد ذلك ـ لنشر اللّغة العربيّة منذ سنة 1962 أعداد غفيرةٌ من المشارقة: من السعوديّة، والكويت، وسوريا، ولبنان، والأردن، ومصر، ومن بلاد المغرب أيضاً (المغرب، وتونس).

ولا نبرح نلتقي مع المدرّسين العرب الذين جاءوا إلى الجزائر بدوافع قوميّة نبيلة، هنا وهناك فنعطّر باللّقاء الذكرى.

ولا يسعنا إلاّ أن ننوّه بالكويت الشقيق الذي كان رصد هبات لأداء مرتبات موظّفيه من مدرّسين وأطباء وغيرهم للفترات التي كانوا يقيمونها بالجزائر للنهوض بوطنهم الثاني بعد أن تعرّض لأبشع احتلال في التاريخ. وليس ذلك فحسب، بل إنّ الكويت كان من أسبق البلدان العربيّة التي خصّصتْ منحاً للطّلاب الجزائريّين كما ذكر ذلك الشيخ محمد البشير الإبراهيمي؛ "فقد قرّرت رئاسة المعارف بالكويت قبول عشرات من تلامذة جمعيّة العلماء الجزائريّين؛[48] على أن تكون أولى

48 ـ كانت جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين التي تأسست في أواخر مايو من عام 1931 بنادي التّرقّي بمدينة الجزائر هي التي تتولّى تدريس اللّغة العربيّة للتلاميذ الجزائريّين في مدارس خاصّة أنشأتها في كلّ المدن الجزائريّة بفضل هبات المواطنين. ثمّ أسست معهد ابن باديس للتعليم الثانويّ بمدينة قسنطينة سنة 1947. ثمّ أفضى بها الطّموح، في منتصف القرن العشرين، إلى أن تبعث البعوث من الطّلاّب الجزائريّين إلى بعض الأقطار العربيّة الشّقيقة. وإلى ذلك يشير الإبراهيمي حين قبل الكويت منْح الطلبة الجزائريّين منحاً ليدرسوا في مدارسه الثانويّة، ثم في الجامعة... ويعني ذلك أنّ الكويت بدأ يكوّن الطّلاب الجزائريّين الذين نشروا اللّغة العربيّة في الجزائر ابتداءً من سنة 1953, أي بسنة واحدة قبل اندلاع ثورة التحرير في نوفمبر 1954.

الدّفعات في هذه السنة (هي سنة 1953) من خمسة عشر تلميذاً، ووصلني خطاب رسميّ بذلك".[49] وقد تضاعف هذا العدد في السنوات اللاحقة بحيث أصبح الكويت أحد مقاصد الطّلاّب الجزائريّين لينهلوا العلم من مؤسساته التعليميّة بمنح كويتيّة سخيّة. وقد تخرّج بعض الشعراء باللّغة العربيّة من أولئك الطّلاّب منهم الشاعر الكبير محمد الصالح باوية...

وبفضل بعض هذه الجهود الكويتيّة ومعها جهود عربيّة ننوّه بها تارة أخرى، بهذه المناسبة، دون أيّ عقدة، حافظت الجزائر على عروبتها، وأصبح اليوم قريب من ثمانية ملايين من تلامذتها يدرُسون، في المدارس الجزائريّة، باللّغة العربيّة كزملائهم في العالم العربيّ مشرقاً ومغرباً. بل لقد أصبح عدد شعرائها وكتّابها الشباب، باللّغة العربيّة، لا يأتي اليوم عليهم الحصر! بعد أن كان النّاس يعتقدون أنّ الكتّاب في الجزائر لم يكونوا إلاّ باللّغة الفرنسيّة التي على الرغم من جهود بعض الْمُسنّين الذين لا يزالون يتعلّقون بالثقافة الفرنسيّة في الجزائر، فإنّ هذه اللّغة الأجنبيّة بدأت مكانتها تتقلص، ولم يعد الشباب يُتْقنونها – ما عدا أبناء الذوات– كما كانوا من ذي قبل.

وإذا كانت الجامعات الجزائريّة انطلقت في تعليم موادّها أوّل مرّة بجيش عرمرم من الأساتذة الجامعيّين العرب من معظم الأقطار التي

49- محمد البشير الإبراهيمي، م.م.س.50.

ذكرناها آنفاً، فإنّه لم يبقَ اليومَ منهم في الجزائر إلاّ بعض العراقيّين والفلسطينيين لأسباب إنسانيّة أكثر منها علميّة؛ وذلك لأنّ الطّلبة الذين تعلّموا على الأساتذة المشارقة في بداية أمر الجامعة الجزائريّة، على عهد الاستقلال، أصبحوا هم اليوم أساتذةَ جامعاتٍ. بل وجدنا كثيراً منهم يفدون اليوم على أقطار عربيّة مثل السعوديّة والأردن، وعُمان، والبحرين، وقطر... لتدريس طلاّبها اللّغة العربيّة! وتلك من أعظم ثمرات التعاون الثقافيّ بين المشرق والجزائر في نشر اللّغة العربيّة، والتضافر على تعليمها...

الخليل بن أحمد والقراءات القرآنية

د. التواتي بن التواتي

لقد سبق أن قدمنا في العدد السابق مقالا عن الخليل بن أحمد نحويا منظرا له مكانته في مجال التنظير النحوي بقي أن نتحدث عن علاقته بالقرآن والقراءات فنقول : لقد روي عنه أنّه كان دائم القراءة للقرآن يتدبّر معانيه ويتأمّل آياته وربّما قضى الليل أجمعه في ذلك[1].

وإذا رجعنا إلى كتاب سيبويه نجد فيضا من الشواهد القرآنية التي اعتمدها الخليل ولعلّ نقله عنه منها في أبواب كثيرة منها أكبر شاهد ودليل على صحّة ما ذهبنا إليه .

وكان يُكْثِر من تفسير الآيات القرآنية وتحليلها وتوجيهها توجيها نحويا وكان في معظم ذلك يردّ عن سؤال وجّهه إليه تلميذه سيبويه عن استعمال معيّن أو تعبير خاص وما يختار قولا إلاّ دعّمه بشاهد من القرآن أو كلام العرب ،ولهذا نثبت موقفه من القراءات ،ووجهة نظره لبعضها وتفسيره لها.

1 ـ شرح المقامات الحريرية ، الشريشي ، 212/2

ـ موقفه من بعض القراءات :

لقد وردت في عدد من الآيات قراءات مختلفة تعرّض لها العلماء ، وكانت لهم اتجاهها مواقف معيّنة ، فردّوا بعضا منها ، وقبلوا بعضها الآخر ونريد أن نعرف موقف الخليل بن أحمد من هذه القراءات فلا سبيل لذلك إلاّ نلتمس له أثرا في كتاب سيبويه لأنّه تلميذ الخليل ، وحامل علمه حتى قال الألوسي : وقد أكثر سيبويه في الكتاب من قوله زعم الخليل كذا في أشياء يرتضيها يريد بذلك القول المحقق وقد نقل ذلك جماعات من أهل اللغة وغيرهم ونقله أبو عمر الزاهد في شرح الفصيح عن شيخه أبي العباس ثعلب عن العلماء باللغة من الكوفيين والبصريين [2].

وقال الثعالبي : وإذا قال سيبويه زعم الخليل فإنما يستعملها فيما انفرد الخليل به ، وكان أقوى رتب (زعم) أن تبقى معها عهدة الخبر على المخبر [3].

وقال الألوسي : وأكثر ما يقال فيما يشك فيه ، ومن هنا قيل : إنه قول بلا دليل وقد كثر استعماله بمعنى القول الحق وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم : "زعم جبريل" وفي حديث ضمام بن ثعلبة رضي الله عنه : "زعم رسولك وقد أكثر سيبويه في الكتاب من قوله : زعم الخليل كذا في أشياء يرتضيها.

---

2 ـ روح المعاني ، الألوسي ، 67/5 . 97/15

3 ـ تفسير الثعالبي ، 385/1

وقال : وقد أكثر سيبويه وهو إمام العربية في كتابه من قوله : زعم الخليل وزعم أبو الخطاب يريد بذلك القول المحقق وقد نقل ذلك جماعات من أهل اللغة وغيرهم ونقله أبو عمر الزاهد في شرح الفصيح عن شيخه أبي العباس ثعلب عن العلماء باللغة من الكوفيين والبصريين ..[4]

1 ـ قال سيبويه في باب : ما يجوز فيه الرفع ممّا ينتصب من قولنا : هذا عبد الله منطلق :"زعم الخليل أنّ رفعه على وجهين :

(أ) ـ وجه أنّك حين قلت : هذا عبد الله ، أضمرت (هذا) أو (هو) كأنّك قلت : هذا منطلق أو هو منطلق .

(ب) ـ والوجه الثاني أن تجعلهما جميعا خبرا لـ(هذا)كقولك ، هذا حلو حامض لا تريد أن تنقض الحلاوة ، ولكنّك تزعم أنّه جمع الطعمين.

2 ـ وقال الله عزّ وجلّ (**كَلَّا إِنَّهَا لَظَى(15) نَزَّاعَةً لِلشَّوَى(16)** المعارج/ وزعموا أنّها في قراءة ابن مسعود (هذا بعلي شيخ).[5] والذي نلاحظه من كلام الخليل بن أحمد أنهّ يأخذ بالقراءة مسلّما بها، وحمل عليها في مكان آخر قولهّ عزّ وجلّ **(هذا ما لديّ عتيد)** ق/23 .

4ـ روح المعاني ، الألوسي ، 67/5

5ـ الكتاب ، سيبويه ، 258/1

3ـ وذكر سيبويه في باب (ما ينتصب لأنّه ليس من اسم ما قبله ولا هو هو) قوله تعالى : (**فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ**(10)فصلت/ ثمّ أردف وقد قرأ ناس (في أربعة أيّام سواءٍ) قال الخليل : جعله بمنزلة : مستوياتٍ).[6] ففي هذه الآية إذًا قراءتان :

إحداهما : بنصب (سواءً) على الحالية .

والثانية : بخفضها على الصفة عند الخليل أي أنّها نعت لـ(أربعة أيام)وقد قبل الخليل القراءتين جميعا ، وحاول أن يجد للتي وردت بالخفض وجها تُحمل عليه.

4ـ وقال سيبويه : أنّ بعضهم قرأ هذا الحرف نصبا: (**وامرأتُهُ حَمالةَ الْحَطَبِ**)المسد/4 ولم يعترض الخليل على القراءة بل سلّم بها وعدّ قوله تعالى : (حمالةَ الحطبِ) ممّا انتصب على الشتم [7]

5 ـ وروى الخليل أنّ بعضهم قرأ(**وَمَنْ تَقْنُتْ مِنْكُنَّ للهِ ورسوله**)الأحزاب/31 فأنّث الفعل في الصلّة حينما عنى بـ(مَنْ) مؤنّثا ولكنّه لم يعترض على القراءة الأخرى (ومَنْ يَقْنُتْ)التي وردت بتذكير الفعل حملا على لفظ (مَنْ)أو يفضّل إحداهما على الأخرى.[8]

6 ـ وفي قوله تعالى : (**لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ**)الأعراف/41 أي إغماء قال أبو إسحاق : زعم الخليل وسيبويه

6ـ الكتاب ، سيبويه ، 275/1

7ـ الكتب ، سيبويه ، 288/1

8ـ الكتاب سيبويه ، 404/1

جميعا أن النون هاهنا عوض من الياء لأن غواش لا ينصرف والأصل فيها غواشي إلا أن الضمة تحذف لثقلها في الياء فإذا ذهبت الضمة أدخلت التنوين عوضا منها قال : وكان سيبويه يذهب إلى أن التنوين عوض من ذهاب حركة الياء والياء سقطت لسكونها وسكون التنوين.[9]

7 ـ **إسناد قراءة النصب** :حدثنا نصر بن علي قال : خبرنا بكار بن عبد الله بن يحيى العوذي عن الخليل بن أحمد قال : سمعت عبد الله بن كثير المكي أنه كان يقرأ (غير المغضوب عليهم)وقال الخليل: وهي جائزة على وجه الصفة للذين أنعم الله عليهم يعني بالصفة القطع من ذكر الذين ويجوز أن يكون نصب غير على الحال وقد قال الأخفش : نصب (غير) على الاستثناء وهذا غلط.[10]

8 ـ ومن ذلك قراءة الأعمش ونافع وحمزة والكسائي **(وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَنُكَفِّرْ عَنْكُمْ)** البقرة/271 بالنون والجزم وقرأ ابن عباس بالتاء الفوقية وفتح الفاء والجزم وقرأ الحسين بن علي الجعفي بالنون ونصب الراء . فمن قرأ بالرفع فهو معطوف على محل الجملة الواقعة جوابا بعد الفاء أو على أنه خبر مبتدأ محذوف ومن قرأ بالجزم فهو معطوف على الفاء وما بعدها ومن قرأ بالنصب فعلى تقدير (أن).[11]

---

9 ـ معاني القرآن وإعرابه ، أبو إسحاق الزجاج ، 338/2

10 ـ كتاب السبعة في القراءات ، ابن مجاهد ، 112/1 . الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي ، 151/1

11 ـ فتح القدير ، الشوكاني ، 290/1

قال ابن مالك : لو قرئ بنصب الراء لكان جائزا في العربية وهي قراءة زائدة عن الأربعة عشر.[12]

وقال سيبويه : والرفع هاهنا الوجه الجيد لأنّ الكلام الذي بعد الفاء جرى مجراه في غير الجزاء فجرى الفعل هنا كما كان يجري في غير الجزاء . وأجاز الجزم بتأويل وإن تخفوها يكن الإخفاء خيرا لكم ويكفر وبمثل قول سيبويه قال الخليل.[13]

وقال أبو علي الفارسي : و(قراءة الجزم)على حمل الكلام على موضع قوله فهو خير لكم لأن قوله فهو خير لكم في موضع جزم.[14]

واستشكله البدر الدماميني بأنه صريح في أن الفاء و ما دخلت عليه في محل جزم وقد تقرر أن الجملة لا تكون ذات محل من الإعراب إلا إذا كانت واقعة موقع المفرد وليس هذا من محال المفرد حتى تكون الجملة واقعة موقع ذات محل من الإعراب ، وذلك لأن جواب الشرط إنما يكون جملة ولا يصح أن يكون مفردا فالموضع للجملة بالأصالة وادعى أن جزم الفعل ليس بالعطف على محل الجملة وإنما هو لكونه مضارعا وقع صدر جملة معطوفة على جملة جواب الشرط الجازم ، وهي لو صدرت بمضارع كان مجزوما فأعطيت الجملة المعطوفة حكم الجملة المعطوفة عليها وهو جزم صدرها إذا كان فعلا مضارعا. . .[15]

---

12 ـ عمدة الحافظ وعدة اللافظ ، ابن مالك ، ص: 249

13 ـ الكتاب ، سيبويه ، 3/90-91

14 ـ زاد المسير ، ابن الجوزي ، 1/326

15 ـ روح المعاني ، الألوسي ، 3/45

9 ـ قال الخليل بن أحمد : وأنا أقرؤها إن شئتم مخففة على الأصل إن (هذان لساحران) أي : ما هذان إلا ساحران قال الشاعر:

غدر ابن جلموز بفارس بـهمـة * عند اللقاء ولم يكن بمعرد

ثكلتك أمك إن قتلت لمسلما * حلت عليك عقوبة المتعمد

أي : ما قتلت إلا مسلما وفي قراءة عائشة رضي الله عنها (إن هذين لساحران) .

10ـ قال سيبويه : سألت الخليل عن **(ليفعلن)** إذا جاءت مبتدأة فقال : هي على نية القسم فكأنك إذا قلت على هذا : لأضربنك فكأنك قلت والله لأضربنك وإذا قلت : لينطلقن زيد فكأنك قلت والله لينطلقن زيد وكذلك قوله عز اسمه **(وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ(88)ص/** أي : والله لتعلمن وإذا كان ذلك كذلك فقوله تعالى **(وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا)**الإسراء/ ليست اللام في لئن بجواب القسم إنما الجواب لنذهبن وعليه وقع الحلف واللام في لئن إنما هي زائدة مؤكدة يدلك على أن اللام الأولى زائدة وأن اللام الثانية هي التي تلقت القسم جواز سقوط الأولى في نحو قول الشاعر قرأته على أبي علي في نوادر أبي زيد لقيس بن جروة الطائي جاهلي :

فأقسمت لا أحتـل إلا بصهـوة * حـرام علي رمله وشقـائقه

فإن لم تغير بعض ما قد صنعتم * لأنتحين للعظم ذو أنا عارقه

ولم يقل فلئن لم تغير فهذا نظير قوله عز اسمه : (وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا) أي والله إن لم ينتهوا ليمسن وقد شبه بعضهم إذ بـ(إن) فأولاها اللام.[16]

11ـ وقد حكى الخليل وسيبويه أن العرب تقول : (لا أدر) فتحذف الياء وتجتزئ بالكسرة ويزعمون أن ذلك لكثرة الاستعمال . فكان قول الخليل وسيبويه تعليلا لمن حذف الياء في قراءة من قرأ قوله تعالى : (يوم يأت) بها قرأ عاصم وابن عامر وحمزة بغير ياء في الوصل والوقف .

قال الزجاج :الذي يختاره النحويون **(يوم يأتي)** بإثبات الياء والذي في المصحف وعليه أكثر القراءات بكسر التاء وهذيل تستعمل حذف هذه الياءات كثيرا .[17]

(ب) ـ أجوبته عن مسائل في القراءات : وقد وجّه إليه سيبويه عدّة أسئلة تتعلّق بقضايا نحوية لها علاقة بالقراءات فأجابها عنها بدون أن يعترض عن القراءة الأخرى نذكر منها مسألتين :

(أ) ـ سأل سيبويه الخليل بن أحمد عن قوله تعالى : **(وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً ، فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ)** الشورى/51 ، فقال: إنّ (يرسل) منصوب بـ(أن) مضمرة ، وليس العطف على (أن يكلّمه) ؛ لأنّ المعنى يصبح فاسدا حينذاك .

---

16 ـ سر صناعة الإعراب ، ابن جني ، 396/1

17 ـ زاد المسير ، ابن الجوزي ، 158/4

والداعي إلى الإضمار أنّ(يرسل) معطوف على (وحيا) كما يقتضي المعنى الصحيح ولمّا كان (يرسل)فعلا و(وحيا) اسماً أُضمرت (أن) ليسوغ عطف الفعل على الاسم . وأهل المدينة يقرأون (أو يرسلُ) بالرفع على الاستئناف، ولكن الخليل لم يعترض على قراءتهم.[18]

(ب) - وسأله سيبويه عن قراءة (فاصّدّق وأَكُنْ من الصَّالِحِين) بجزم (أكن) وكان تفسيره أنّ (أكن) عطف على محلّ الفعل الذي قبله على توهّم جزمه لأنّه قد يكون في هذا الموضع مجزوما ولا فاء فيه . ولكنّه لم يعترض على قراءة من قرأ (وأكونَ) بالعطف على ما بعد الفاء.[19]

(ج)- قال سيبويه : وسألته (أي : الخليل) عن قوله تعالى : (وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا(68) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا(69)الفرقان/فقال هذا الأول لأنّ مضاعفة العذاب هو لُقِيُّ الآثام . ومثل ذلك من الكلام : إن تأتينا نحسن إليك نعطك ونحملْكَ ، تفسر الإحسان بشيء هو ؛ وتجعل الآخر بدلا من الأول.[20]

---

18 ـ الكتاب ، سيبويه ، 429/1

19 ـ الكتاب ، سيبويه ، 452/1

20 ـ الكتاب ، سيبويه ، 87/3

ـ توجيهه لبعض القراءات :

1ـ وكان الخليل بن أحمد يفسّر همزة أنّ في قراءة من قرأ **(وأَنّ هذه أمّتكم أمّة واحدة وأنا ربّكم فاتّقون)**المؤمنون/52 على تقدير حذف اللام ، كأنّه قال : ولأنّ هذه أمّتكم أمّة واحدة . وقال نظيرها : **(لإيلَافِ قُرَيْشٍ**(1) لأنّه هو لذلك **(فَلْيَعْبُدُوا)** فإن حذفت اللام من أن فهو نصب كما أنّك لو حذفت اللام من لإيلاف كان نصبا . وهي عند سيبويه متعلقة بقوله (فاتقون) وتقدير : فاتقون لأن أمتكم واحدة وهذا كقوله تعالى : **(وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا)**(18)الجن/ أي : لأن المساجد لله فلا تدعوا معه غيره .

أمّا القراءة الأخرى التي وردت بكسرها ووصفها سيبويه بأنّها جيّدة فلم يتعرض لها الخليل وقال عنها سيبويه : ولو قرءوها **(وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِي**(52) [21] كان جيدا وقد قرأ بها عاصم وحمزة والكسائي ، (وإن) بكسر الهمزة على الاستئناف أو عطفا على الآية السابقة **(إِنِّي بِمَا تَعْلَمُونَ عَلِيمٌ)**.[22]والظاهر أنّه يراها جيّدة مثل تلميذه ولو كان له فيها رأي لذكره سيبويه .

2 ـ ذكر سيبويه أنّه سأل الخليل عن قوله تعالى **(وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ**(82)القصص/ وعن قوله تعالى : **(وَيْكَأَنَّ اللَّهَ)** فزعم أنّ (وي)

21ـ الكتاب ، سيبويه ، 1/126 ـ 127

22ـ الكتاب ، سيبويه ، 1/127 إتحاف فضلاء البشر ، الدمياطي ، ص : 312

مفصولة من كأن وأن القوم تنبهوا فقالوا (وي) متندمين على ما سلف منهم وكل من تندم أو ندم فإظهار ندامته أو تندمه أن يقول (وي) كما تعاتب الرجل على ما سلف فتقول : كأنك قصدت مكروهي فحقيقة الوقوف عليها (وي) هو أجود وفي كلام العرب (وي) معناه التنبيه والتندم . قال : وتفسير الخليل رحمه الله مشاكل لما جاء في التفسير لأن قول المفسرين أما ترى هو تنبيه.[23]

وذكر الفراء في كتابه قول الخليل وقال : (وي كأن) مفصولة كقولك للرجل (وي أما ترى ما بين يديك) فقال : وي ثم استأنف كأن الله يبسط الرزق وهو تعجب وكأن في المعنى الظن والعلم .

وقال : وهذا وجه يستقيم ولو تكتبها العرب منفصلة ، ويجوز أن يكون كثر بها الكلام فوصلت بما ليس منه كما اجتمعت العرب على كتاب(يا بنؤم) فوصلوها لكثرتها وقال : وكذا رأيتها في مصحف عبد الله وهي في مصحفنا.[24]

قال ابن جني : ذهب الخليل وسيبويه فيه إلى أنه (وي) مفصول وهو اسم سمي به الفعل في الخبر وهو معنى أعجب ثم قال : مبتدئا كأنه لا يفلح الكافرون وأنشدوا[25] فيه :

---

23 ـ الكتاب ، سيبويه ، 154/2

24 ـ معاني القرآن ، الفراء ، 321/2 ـ313

25 ـ معاني القرآن وإعرابه ، الزجاج ، 157/4 البيتان في (الكتاب ، 154/2) لزيد عمرو بن نفيل يتحدث عن زوجين له فركتاه لقلة ماله فقال :

تلك عرساي تنطقان على العمد إلـــى اليـوم قـول زور وهـتـر

سألتاني الطَّلاَقَ إِذْ رَأَتَانِي قَلَّ مَالِي قَدْ جِئْتُمَا فِي بنكر

وَيْ كأنْ مَنْ يكن نشب يحـبَبْ ومَنْ يفتقرْ يعش عَيْشَ ضُرّ

وذهب أبو الحسن الأخفش الأوسط فيه إلى أنه : "ويك أنه لا يفلح الكافرون" أراد (ويك) أي : أعجب أنه لا يفلح الكافرون أي أعجب لسوء اختيارهم ونحو ذلك فعلق أن بما في (ويك) من معنى الفعل وجعل الكاف حرف خطاب بمنزلة كاف ذلك وهنالك.

قال أبو علي منتصرا لقول سيبويه : قد جاءت (كأن) كالزائدة وأنشد بيت عمر :

كأنني حين أمسي لا تكلمني ذو (بغية يشتهي ما ليس موجودا

أي: أنا كذلك وكذلك قول الله تعالى **(وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ)** أي هم لا يفلحون . وقال الكسائي : أراد ويلك ثم حذف اللام.[26]

وقد أسند الإمام الطبري ما ذكره سيبويه للمفسرين إلى قتادة بأكثر من سند قارنا له بأخذ بعض أهل العربية به ، وهو سيبويه لأنّه من البصرة ولسوقه شاهده السالف فقال : وتأول هذا التأويل الذي ذكرناه عن قتادة في ذلك أيضا بعض أهل المعرفة بكلام العرب من أهل البصرة واستشهد لصحة تأويله ذلك كذلك بقول الشاعر السالف.

وقال بعض نحويي الكوفة : ويكأن في كلام العرب تقرير كقول الرجل أما ترى إلى صنع الله وإحسانه وذكر أنه أخبره من سمع أعرابية

26 ـ الخصائص ، ابن جني ، 3/169ـ170

تقول لزوجها أين ابننا فقال : "ويكأنه وراء البيت" معناه أما ترينه وراء البيت.

قال : وقد يذهب بها بعض النحويين إلى أنها كلمتان يريد (ويك) أنه كأنه أراد (ويلك) فحذف اللام فتجعل أن مفتوحة بفعل مضمر كأنه قال ويلك اعلم أنه وراء البيت فأضمر اعلم .

قال : ولم نجد العرب تعمل الظن مضمرا ولا العلم وأشباهه في أن وذلك أنه يبطل إذا كان بين الكلمتين أو في آخر الكلمة فلما أضمر جرى مجرى المتأخر ألا ترى أنه لا يجوز في الابتداء أن يقول يا هذا أنك قائم ويا هذا أن قمت يريد علمت أو اعلم أو ظننت أو أظن . وأما حذف اللام من قولك (ويلك) حتى تصير ويك فقد تقوله العرب لكثرتها في الكلام قال عنترة :

ولقد شفى نفسي وأبرأ سقمها * قول الفوارس ويك عنتر أقدم

قال : وقال آخرون : إن معنى قوله ويكأن وي منفصلة من كأن كقولك للرجل وي أما ترى ما بين يديك فقال : (وي) ثم استأنف كأن الله يبسط الرزق وهي تعجب وكأن في معنى الظن والعلم فهذا وجه يستقيم قال : ولم تكتبها العرب منفصلة ولو كانت على هذا لكتبوها منفصلة وقد يجوز أن تكون كثر بها الكلام فوصلت بما ليست منه .

وقال آخر منهم : إن (وي) تنبيه وكأن حرف آخر غيره بمعنى لعل الأمر كذا وأظن الأمر كذا لأن كأن بمنزلة أظن وأحسب وأعلم .

الترجيح : وأولى الأقوال في ذلك بالصحة القول الذي ذكرنا عن قتادة من أن معناه ألم تر ألم تعلم للشاهد الذي ذكرنا فيه من قول الشاعر والرواية عن العرب وأن ويكأن في خط المصحف حرف واحد ومتى وجه ذلك إلى غير التأويل الذي ذكرنا عن قتادة فإنه يصير حرفين وذلك أنه إن وجه إلى قول من تأوله بمعنى ويلك اعلم أن الله وجب أن يفصل (ويك) من أن وذلك خلاف خط جميع المصاحف مع فساده في العربية لما ذكرنا وإن وجه إلى قول من يقول (وي) بمعنى التنبيه ثم استأنف الكلام بكأن وجب أن يفصل وي من كأن وذلك أيضا خلاف خطوط المصاحف كلها فإذا كان ذلك حرفا واحدا فالصواب من التأويل ما قاله قتادة .[27]

ومن هذه القراءات التي أثبناها -كان للخليل فيها رأيٌ- نستشفّ أنّ موقفه مخالف لما نسب إليه من تخطئة بعض القراءات وردّها والذي نلمسه من خلال ما ذكرنا أنّ الرجل له احترام للقراءات وإن لم يأخذ ببعضها فإنّه لا ينكرها ولا يخطّئها.

3 ـ **(لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ)** النحل /63 فأنّ جرم عملت فيها لأنّها فعل ، ومعناها : لقد استحق أنّ لهم النار وقول المفسرين : معناها : حقّا أنّ لهم النار يدلّك أنّها بمنزلة هذا الفعل إذا مثّلت فجرم بعد عملت في أنّ عملها في قول الفزاريّ :

ولقد طعنتَ أبا عُيَيْنَةَ طَعْنَةً * جَرَمتْ فَزَارةَ بَعدها أَنْ يَغْضَبُوا

27 ـ تفسير الطبري ، 120/20 ـ 121

أي : أحقت فزارة .وزعم الخليل أنّ لا جرم إنما تكون جوابا لما قبلها من الكلام . . . فتقول : لا جرم أنّهم ستندمون أو سيكون كذا وكذا .[28]

قال د/ إبراهيم رفيدة: ومفهوم كلامه أنّ فزارة في البيت منصوب لأنّه فسر جرم بـ"أحقت" المتعدي بالهمزة ، وقد شكلت (فزارة) في الكتاب بالنصب وكذلك فسره الأعلم بـ(حق) المتعدي فقال : ومعناه على مذهب سيبويه : حقتها للغضب لأنّه فسر قولهم : لا جرم أنّه سيفعل على معنى حق أنّه يفعل ولا عنده زائدة إلاّ أنها ألزمت جرم لأنّها كالمثل.[29]

وقد ردّ الفراء ما ذهب إليه الخليل وسيبويه فقال : وليس قول من قال : إن جرمت كقولك حققت أو حققت بشيء وإنما لبس عليه قول الشاعر:

جرمت فزارة بعدها أن يغضبوا

فرفعوا فزارة وقالوا : نجعل الفعل لفزارة كأنها بمنزلة حق لها أو حق لها أن تغضب قال : وفزارة منصوب في البيت المعنى : جرمتهم الطعنة الغضب أي : كسبتهم .[30]

---

28 ـ الكتاب ، سيبويه ، 138/3

29 ـ النحو الكتب التفسير ، د/ إبراهيم عبد الله رفيدة ، 1187/2

30 ـ معاني القرآن ، الفراء ،

وقال غير الفراء : حقيقة معنى لا جرم أن لا نفي هاهنا لما ظنوا أنه ينفعهم فرد ذلك عليهم فقيل : لا ينفعهم ذلك ثم ابتدأ فقال : **(جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ**(22))هود/ أي كسب ذلك العمل لهم الخسران وكذلك قوله عز وجل: **(لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ(62)) النحل/** المعنى : لا ينفعهم ذلك ثم ابتدأ فقال : جرم إفكهم وكذبهم لهم عذاب النار أي كسب عذابها.

قال الأزهري: وهذا من أبين ما قيل فيه الجوهري قال الفراء : لا جرم كلمة كانت في الأصل بمنزلة لا بد ولا محالة فجرت على ذلك وكثرت حتى تحولت إلى معنى القسم وصارت بمنزلة حقا فلذلك يجاب عنها باللام كما يجاب بها عن القسم ألا تراهم يقولون لا جرم لآتينك قال وليس قول من قال جرمت حققت بشيء وإنما لبس عليه الشاعر أبو أسماء بقوله : "جرمت فزارة".

وقال أبو عبيدة : أحقت عليهم الغضب أي أحقت الطعنة فزارة أن يغضبوا وحقت أيضا من قولهم لا جرم لأفعلن كذا أي : حقا.

قال ابن بري : وهذا القول رد على سيبويه والخليل لأنهما قداره "أحقت فزارة الغضب" أي :

بالغضب فأسقط الباء قال: وفي قول الفراء لا يحتاج إلى إسقاط حرف الجر فيه لأن تقديره عنده كسبت فزارة الغضب عليك.[31]

---

31 ـ لسان العرب ، ابن منظور ، 94/12 والبيت لأبي أسماء بن الضريبة ويقال لعطية بن عفيف وصوابه ولقد طعنت أبا عيينة بفتح التاء لأنه يخاطب كرزا العقيلي ويرثيه وقبل البيت :

يا كرز إنك قد قتلت بفارس بطل إذا هاب الكماة وجبوا

وكان كرز قد طعن أبا عيينة وهو حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري

ولما تعرضوا إلى قوله تعالى : **(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا)** المائدة/2 احتج جميعهم ببيت الشاعر:

ولقد طعنت أبا عيينة طعنة (جرمت فزارة بعدها أن يغضبوا

فتأول ذلك كل فريق منهم على المعنى الذي تأوله من القرآن :

(أ) ـ وقال بعضهم : **(لَا يَجْرِمَنَّكُمْ)** لا يحقن لكم معنى قول الشاعر : جرمت فزارة أحقت الطعنة لفزارة الغضب .

(ب) ـ وقال آخرون : معناه لا يحملنكم معناه في البيت "جرمت فزارة" أن يغضبوا حملت فزارة على أن يغضبوا .

(ج)ـ قال آخر من الكوفيين : معنى قوله **(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا)** المائدة/2 لا يكسبنكم شنآن قوم وتأويل قائل هذا القول قول الشاعر في البيت :

"جرمت فزارة" أي : كسبت فزارة أن يغضبوا وقال : وسمعت العرب تقول فلان جريمة أهله بمعنى كاسبهم وخرج يجرمهم يكسبهم .

وهذه الأقوال التي حكاها الطبري متقاربة المعنى وذلك أن من حمل رجلا على بغض رجل فقد أكسبه بغضه ومن أكسبه بغضه فقد أحقه له.[32]

أما (أن) فقال ابن أبي طالب مكي في قوله تعالى : **(لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمْ النَّارَ)** أن في موضع رفع بجرم بمعنى وجب ذلك لهم .

32 ـ تفسير الطبري ، 6/63-64

وقيل : هي في موضع نصب بمعنى كسبهم أن لهم النار وأصل معنى جرم كسب ومنه المجرمون أي الكاسبون الذنوب.[33]

د- تفسيره اللغوي لبعض الآيات :

1- (فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (32) الشورى / أي الجبال واحدها علم وقال الخليل بن أحمد : كل شيء مرتفع عند العرب فهو علم.[34]

2- وقوله تعالى **(سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ(182))الأعراف** / قال الخليل بن أحمد سنطوي أعمارهم في اغترار منهم.[35]

3- قال النضر بن شميل : سألت الخليل بن أحمد عن قوله تعالى **(يَأْتِينَكَ سَعْيًا)**البقرة/ هل يقال الطائر إذا طار سعى ؟ فقال : لا قلت فما معناه قال معناه يأتينك وأنت تسعى سعيا وهو من التكلف الغير المحتاج إليه بمكان وإنما اقتصر سبحانه على حكاية أوامره جل شأنه من غير تعرض لامتثال خليله عليه الصلاة والسلام ولا لما ترتب عليه من آثار قدرته التي علمت النزر منها للإيذان بأن ترتب تلك الأمور على الأوامر الجليلة واستحالة تخلفها عنها من الجلاء والظهور بحيث لا حاجة له إلى الذكر أصلا.[36]

33- مشكل إعراب القرآن ، ابن أبي طالب مكي ، 412/1

34- تفسير البغوي ، 128/4

35- زاد المسير ، ابن الجوزي ، 294/3

36- روح المعاني ، الألوسي ، 30/3

4 - وفي قوله : **(وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ)**آل عمران/ قال الخليل : يقال : محص الحبل يمحص محصا إذا انقطع وبره ومنه : "اللهم محص عنا ذنوبنا أي خلصنا من عقوبتها وقال أبو إسحاق الزجاج : قرأت على محمد بن يزيد عن الخليل التمحيص التخليص يقال : محصه يمحصه محصا إذا خلصه فالمعنى عليه ليبتلي المؤمنين ليثبتهم ويخلصهم من ذنوبهم ويمحق الكافرين أي : يستأصلهم بالهلاك.[37]

5- وفي قوله تعالى : **(مِنْ الصَّوَاعِقِ)** قال الخليل : هي الواقعة الشديدة من صوت الرعد يكون معها أحيانا قطعة نار تحرق ما أتت عليه.[38]

6- وفي قوله تعالى : **(وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ)**آل عمران/ قال الخليل وسيبويه : هي (أي) دخلت عليها كاف التشبيه وبنيت معها فصار في الكلام معنى (كم) وصورت في المصحف نونا لأنها كلمة نقلت عن أصلها فغير لفظها لتغير معناها ثم كثر استعمالها فتلعبت بها العرب وتصرفت فيها بالقلب والحذف فحصل فيها لغات أربع قرئ بها.[39]

37- الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي ، 220/4

38- الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي ، 219/1

39- الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي ، 228/4 وقد قرئ بها :

أ - قرأ ابن كثير وكائن مثل وكاعن على وزن فاعل وأصله كيء فقلبت الياء ألفا كما قلبت في ييأس فقيل ياءس قال الشاعر :

وكائنْ بالأباطح من صديق * يراني لو أُصِبْتُ هو المُصابا

7ـ وروى ابن شميل عن الخليل بن أحمد أنه قال : كل شيء في القرآن (كلا) رد يرد شيئا ويثبت آخر.[40]

تعليق : قال ابن الأنباري (كلا) : هي عند الفراء تكون صلة لا يوقف عليها وتكون حرف رد بمنزلة نعم ولا في الاكتفاء فإذا جعلتها صلة لما بعدها لم تقف عليها كقولك: كلا ورب الكعبة لا تقف على (كلا) لأنها بمنزلة إي والله قال الله تعالى : **(كلا والقمر)** الوقف على كلا الردع والزجر : وهو مذهب سيبويه وإليه ذهب الزجاج في جميع القرآن.

وقال آخر :

وكائِنْ رددنا عنكم من مدجَّج * يجيء أمام الركب يردي مُقَنَّعا

وقال آخر :

وكائِنْ في المَعَاشِرِ من أُنَاس * أخوهم فَوْقَهم وَهُمُ كِرَامُ

ب ـ وقرأ ابن محيصن وكئن مهموزا مقصورا مثل وكعن وهو من كائن حذفت ألفه وعنه أيضا وكأين مثل وكعين وهو مقلوب كيء المخفف

ج ـ وقرأ الباقون كأين بالتشديد مثل كعين وهو الأصل قال الشاعر :

كَأَيِّنْ من أُنَاس لم يزالوا * أخوهم فوقهم وهم كرام

وقال آخر :

كأيِّنْ أَبَدْنا من عدو بعزنا * وكائِنْ أجرنا من ضعيف وخائف

فجمع بين لغتين (كأين وكائن) ولغة خامسة كيئن مثل : (كَيْعِنْ) وكأنه مخفف من كَيِّءْ مقلوب كأيِّنْ .

ولم يذكر الجوهري غير لغتين : كائن مثل كاعن وكأين مثل كعين تقول كأين رجلا لقيت بنصب ما بعد كأين على التمييز وتقول أيضا كأين من رجل لقيت وإدخال من بعد كأين أكثر من النصب بها وأجود وبكأين تبيع هذا الثوب أي بكم تبيع قال ذو الرمة :

وكائِنْ ذَعَرْنَا مِنْ مَهَاةٍ وَرَامِحٍ * بِلادُ الْعِدَا لَيْسَتْ لَهُ بِبِلاد

40 ـ لسان العرب ، ابن منظور ، 231/15

وقال أبو حاتم السجستاني : جاءت كلا في القرآن على وجهين فهي في موضع بمعنى لا وهو رد للأول كما قال العجاج :

قد طلبت شيبان أن تصاكموا * كـلا ولمـا تصطفق مآتم

وتجيء كلا بمعنى (ألا) التي للتنبيه كقوله تعالى : **(أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ)** وهي زائدة لو لم تأت كان الكلام تاما مفهوما وقال : ومنه المثل : "كلا زعمت العير لا تقاتل" وقال الأعشى :

كلا زعمتم بأنا لا نقاتلكم * إنا لأمثالكم يا قومنا قتل

وهذا غلط معنى كلا في البيت وفي المثل : لا ليس الأمر على ما تقولون .

قال أبو العباس المبرد : لا يوقف على كلا في جميع القرآن لأنها جواب والفائدة تقع فيما بعدها قال : واحتج السجستاني في أن كلا بمعنى ألا بقوله تعالى: **(كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى(6))** العلق /.[41]

قال الخليل بن أحمد : سمعنا كلمة شنعاء لا تجوز في التأليف سئل أعرابي عن ناقته فقال : تركتها ترعى العهعخ . قال : وسألنا الثقات من علمائهم فأنكروا أن يكون هذا الاسم من كلام العرب قال : وقال الفذ منهم : هي شجرة يتداوى بها وبورقها قال : وقال أعرابي آخر : إنما هو الخعخع قال الليث : وهذا موافق لقياس العربية والتأليف.[42]

41 ـ لسان العرب ، ابن الأنباري ، 231/15

42 ـ لسان العرب ، 40/3

مفاهيم لسانية : ـ روى ابن شميل عن الخليل أنه قال : المحال الكلام لغير شيء والمستقيم كلام لشيء والغلط كلام لشيء لم ترده واللغو كلام لشيء ليس من شأنك والكذب كلام لشيء تغر به.[43]

علم الأصوات : أما الصوتيات فقد شهد له العلماء أنّه أول من وضع أصول هذا العلم وكان الداعي إلى الاعتناء بهذا العلم الأداء القرائي ثم استقل بعد ذلك كعلم قائم برأسه.[44] ونثبت ها هنا رأيه في أصوات بعض الحروف.

1ـ صوت الهمزة : قال الخليل : الهمزة صوت مهتوت في أقصى الحلق يصير همزة فإذا رفه عن الهمز كان نفسا يحول إلى مخرج الهاء فلذلك استخفت العرب إدخال الهاء على الألف المقطوعة نحو أراق وهراق وأيهات وهيهات وأشباه ذلك كثير .

قال سيبويه : من الحروف المهتوت وهو الهاء وذلك لما فيها من الضعف والخفاء. ومنها قولهم : فهتها في البطحاء أي صبها على الأرض حتى سمع لها هتيت أي صوت ورجل هتات ومهت وهتهات خفيف كثير الكلام وهت القرآن هتا أي : سرده سردا والسحابة تهت المطر إذا تابعت صبه . قال ذو الرمة :

سقيا مجللة ينهل ريقها من * باكر مرثعن الودق مهتوت [45]

43 ـ لسان العرب ، 186/11

44 ـ التطور النحوي للغة العربية ، برجشتراسر ، ص: 11 (بتصرف في الأسلوب)

45 ـ لسان العرب ، 103/2

2 ـ الحروف اللينة : قال الخليل : إذا جاءت الحروف اللينة في كلمة نحو لو وأشباهها ثقلت لأن الحرف اللين خوار أجوف لا بد له من حشو يقوى به إذا جعل اسما .

وقال : والحروف الصحاح القوية مستغنية بجروسها لا تحتاج إلى حشو فتترك على حالها والذي حكاه الجوهري في حكاية أبي الدقيش عن الخليل قال : قلت لأبي الدقيش : هل لك في ثريدة كأن ودكها عيون الضياون ؟ فقال : أشد الهل .

3ـ قال الخليل بن أحمد : الهاء والحاء لا تأتلفان في كلمة واحدة أصلية الحروف لقرب مخرجيهما في الحلق ولكنهما يجتمعان من كلمتين لكل واحدة منهما معنى على حدة كقول لبيد

يتمارى في الذي قلت له * ولقد يسمع قولي حيهل[46]

4ـ تِهَامَة بلد والنسب إليه تِهَامِي وتهامٍ على غير قياس كأنهم بنوا الاسم على تهمي أو تهمي ثم عوضوا الألف قبل الطرف من إحدى الياءين اللاحقتين بعدها .

قال ابن جني : وهذا يدلك على أن الشيئين إذا اكتنفا الشيء من ناحيته تقاربت حالاهما وحالاه بهما ولأجله وبسببه ما ذهب قوم إلى أن حركة الحرف تحدث قبله وآخرون إلى أنها تحدث بعده وآخرون إلى أنها تحدث معه قال أبو علي : وذلك لغموض الأمر وشدة القرب وكذلك القول في شآم ويمان.

---

46 ـ معجم العين ، الخليل بن أحمد ، 5/3

قال ابن سيده : فإن قلت : فإن في تهامة ألفا فلم ذهبت في تهام إلى أن الألف عوض من إحدى ياءي الإضافة قيل : قال الخليل في هذا : إنهم كأنهم نسبوا إلى فعل أو فعل فكأنهم فكوا صيغة تهامة فأصاروها إلى تهم أو تهم ثم أضافوا إليه فقالوا : تهام وإنما مثل الخليل بين فعل وفعل ولم يقطع بأحدهما

لأنه قد جاء هذا العمل في هذين جميعا وهما الشام واليمن.

قال ابن جني : وهذا الترخيم الذي أشرف عليه الخليل ظنا قد جاء به السماع نصا أنشد أحمد ابن يحيى :

أرقني الليلة ليل بالتهم * يا لك برقا من يشمه لا ينم

قال : فانظر إلى قوة تصور الخليل إلى أن هجم به الظن على اليقين ومن كسر التاء قال : تهامي هذا قول سيبويه.[47]

وأخيرا : لو استرسلنا في الحديث عن الخليل بن أحمد لا طال بنا المقام لأن الرجل هو اللغة وهو النحو وهو علم اللسان وهو علم الأصوات لم تنجب المرأة العربية عبقريا مثله ألَمَّ بكل أصناف العلوم فترك فيها أثره الواضح ولذا حسبنا ما قدمناه وعلى الله توكلنا فهو نعم المولى ونعم النصير .

47 ـ لسان العرب ، 72/12

مميزات اللغة العربية

د. فؤاد حسنين

نفهم تحت هذا اللفظ المفردات التي شقت طريقها إلى سائر لغات شبه الجزيرة وغيرها من الأقاليم التي استوطنتها الشعوب العربية منذ فجر التاريخ حتى اليوم مثل الأكادية والكنعانية والأرامية والحبشية وما إليها. كذلك نعني باللغة العربية اللغة التي دون فيها تراث سكان قلب الجزيرة وشمالها في العصر الجاهلي وأنزل فيها القرآن الكريم وسجلت فيها الآثار الدينية والأدبية، منذ نزول الوحي حتى يومنا هذا. واللغة العربية وإن كانت قديمة جداً إلا أن أقدم مصدر وصلنا أطلق عليها لفظ (عربية) قد يكون هو القرآن الكريم.

وتقوم لغة التخاطب العربية ولغة بعض الآثار الأدبية التي وصلتنا دليلا على أن هذه اللغة عبارة عن خليط من عدة لغات ولهجات عربية قديمة تحتضنها في صدر الإسلام مجموعتان شهيرتان شرقية أو تميمية وغربية أو حجازية أو قرشية. وفي الشرقية نلمس آثار اللغات العربية الشرقية البائدة مثل الأكادية، وفي الغربية نلحظ الأثرين الكنعاني والعربي الجنوبي.

وقد عثر بعض المستشرقين على آثار لهجات عربية شمالية اصطلح على تسميتها اللحيانية والثمودية والصفوية والأوجاريتية حسب آخر الآراء.

أما اللهجة اللحيانية فنسبة إلى آل لحيان الذين سكنوا شمال الحجاز قبل الميلاد وكانت عاصمة بلادهم مدينة (ددن) الوارد ذكرها في كتاب العهد القديم أو الذي يطلق عليه تجاوزا اسم التوراة، أما (ددن) فهي المعروفة لنا باسم (العلا)، ويرجع الفضل في العثور على كثير من الكتابات اللحيانية إلى أمثال (هوبر Huber) و (أويتنج Euting) حيث عثر الأخير عام 1889 في (العلا)، شمال بلاد العرب، على كتابات قيمة جدا. وفيما بعد نجد أمثال (جوسن Jaussen) و (سافنياك Savignac) وقد عثر كلاهما في المنطقة الواقعة فيما بين العلا والحجر (مدائن صالح) على كتابات اختلف العلماء في تاريخها، كما عثر أيضاً على كتابات لحيانية ترجع إلى عصر الملوك الدادانيين ويرجع تاريخها فيما يظن إلى الفترة الممتدة بين القرنين الثامن والخامس قبل الميلاد.

أما ظهور اللحيانية واللحيانيين في شمال الجزيرة فترجحه الكثرة المطلقة من المعنيين بدراسة اللغات العربية وتاريخ العرب القديم إلى البعث العلمي الجديد الذي ظهر في شمال بلاد العرب في القرن الثاني ق.م. وذلك بفضل الدولة المعينية ومستعمراتها التي كانت منتشرة في شمال الجزيرة العربية، ولا أدل على قوة هذا الأثر المعيني من أن كثيراً من الكتابات التي عثر عليها العلماء مدونة في الخط المعيني الجنوبي ولو

أن لغتها عربية شمالية، ومع مضى الزمن أخذ الخط اللحياني يظهر ويتطور حتى أصبحنا نفرق بين خط لحياني قديم وآخر أقدم منه.

ومن دراسة هذه الكتابات نخرج بنتيجة نقررها دون حرج أو تردد وهي أن اللغة اللحيانية تتفق والعربية الإسلامية في كثير من الخصائص النحوية والصرفية. ففي اللحيانية نجد الإعراب والإفراد والتثنية والجمع، كما تفرق اللغة بين جموع التكسير والتذكير والتأنيث وفي الإشارة تميز بين العقلاء وغير العقلاء كما تستخدم (ذو) لمعنى صاحب وتجريها إجراء العربية القرآنية وكما نستخدم نحن أدوات الإشارة بسيطة ومركبة كذلك الحال هنا في اللحيانية وما يقال عن الإشارة يقال أيضاً عن أدوات الوصل.

وإذا تركنا الإعراب والتذكير والتأنيث والإشارة والوصل وانتقلنا إلى الفعل وجدنا هنا أوزانه وحالات إعرابه المختلفة من رفع ونصب وجزم وإن امتازت اللحيانية في فترة ما بشيوع صيغة (هفعل) إلا أن هذه الصيغة لم تلبث إلا أن اختفت وحلت محلها صيغة (افعل). وفي هذه اللغة العربية القديمة نجد أيضاً البناء للمعلوم والمجهول كما نجد صيغة (فعالى) ولكنها بالياء لا بالكسرة كما هو الحال في العربية القرآنية.

أما الاسم فيعرف وينكر، وأداة التعريف هي (ها) وفي اللحيانية المتأخرة نجد أيضاً (ال) والاسم مذكر ومؤنث وغير المؤنث اللفظي يؤنث الاسم بعلامة التأنيث (ة).

ومعظم الجمل التي وصلتنا اسمية. وقبل أن أختم القول في اللحيانية أحب أن أشير إلى أن هذه اللغة استكملت أبجديتها أعني أننا نجد فيها

سائر الإشارات الدالة على مختلف الأصوات من (ث خ ذ ض ظ غ) كما سهلت الهمزة أحيانا.

وخالفت العربية القرآنية أحيانا في العدد فاللحيانية تقول مثلا (أربعو عبد) أي أربعون عبدا و (عشر أيام).

* * *

أما اللغة الثمودية فنسبة إلى الشعب العربي القديم المعروف باسم (ثمود) ولعل أقدم نص جاء فيه ذكره هو ذلك النص الأكادى الذي يرجع إلى القرن الثامن ق.م. والذي يتحدث فيه الملك (سرجون) عن انتصاراته، فقد عدد الملك الظافر أسماء الشعوب التي أخضعها ومنها الشعب الثمودي، ومن ثم تمضي عدة قرون دون أن نجد ذكرا تاريخيا لهذا الشعب حتى يأتي القرن الخامس الميلادي فنقرأ في الوثائق البيزنطية أن القيصر البيزنطي كان يستعين بعدد من الثموديين في جيشه، ثم تمضى فترة أخرى حتى يأتي القرآن الكريم ويحدثنا عن ثمود كشعب عربي أرسل اللّه إليه نبيه صالحاً.

وظل أمر هذا الشعب مجهولا، كما ذهب الشراح والمفسرون مذاهب عدة في فهم هذا الشعب وحقيقته حتى جاء النصف الثاني من القرن التاسع عشر فظهر الرحالة المشهور (شارل دوتي ch. Doughty) وقام برحلته المشهورة إلى الحجاز عام 1876 ـ 1877 م وسار حتى بلغ الطائف

وجمع عدداً كبيراً من النقوش نشرها عام 1891 في باريس. وبعد (دوتي) أقبل عدد كبير من المستشرقين على البلاد العربية ونخص بالذكر منهم (جوسن)، و (سافنياك) فقد قاما برحلتين هامتين أولاهما عام 1907 وثانيتهما (1909 ـ 1910 وقد جمعا كثيراً من النقوش والمعلومات التي أفادت تاريخ البلاد العربية ولغاتها.

وغير هؤلاء نجد أمثال (ب. موريتس B. Moritz) و (ر. بوتين R. Butin) و (هوبرت جريمه H. Grimme) و (هنس روتست H. Rhotest و (ى. ى. هس J.J. Hess) و (ج. ريكمنز J. Ryckmqns) و (ف. ف. وينت F. V. Winnett) وغيرهم.

أما الكثرة المطلقة من هذه الكتابات الثمودية فقد عثر عليها في (الجوف) و (حايل) وما حولها، وعلى طول الطريق الممتد بين (حايل) و (تيماء) و (العلا) مارا بالحجر ومدائن صالح وجنوبا الطائف والطريق المعروف الآن باسم درب الحج الموصل إلى مكة وشمالا تبوك وما جاورها، كما عثر على بعض الكتابات أيضاً في أم الرصاص بالأردن وإقليم الصفا وفي شرابيل بشبه جزيرة سيناء وجهات أخرى متفرقة بالقرب من العقبة وشمالا عند صيدا.

ومن انتشار هذه الكتابات الثمودية نقرر أن هذا الشعب عاش في شمال الجزيرة ولو أن ذلك لا يمنع من القول إنه أصلا قد يكون جنوبيا يمنيا ومن ثم رحل إلى الشمال.

ومن هذه الكتابات الثمودية يتضح لنا أيضاً أن الشعب الثمودي كان شعبا مستقراً متحضراً يحترف الزراعة وتربية الماشية والصيد وتربية

النحل. كما أنه كان شعبا متدينا له كثير من دور العبادات وبيوتها، كما كان له مجمع آلهة كمجمع مكة، ومن بين آلهته نجد عدداً كبيراً من معبودات العرب الجنوبيين أعني المعينين والسبائيين مثل (عثيرت) آلهة الشمس القتبانية و (سين) إله القمر الحضرمي و (عم) إله القمر القتباني، كما عبد الثموديون بعض آلهة سكان قبل الجزيرة أمثال (ود) و (سميع) و (هبل) و (ياغوث) و (إله) و (اللات) و (حول) و (مناة) و (مناف) وغيرها.

ومن دراسة طقوس وأسماء هذه المعبودات واشتراك أكثر من شعب عربي في تقديسها نتبين المستوى الروحي العام الذي كان سائداً في الجزيرة العربية قبل الإسلام، كما ندرك الخطوات السريعة التي خطتها الشعوب العربية للتوحيد أولا والاتحاد ثانيا.

أما الخط الثمودي فخط عربي قديم أعني ليس كتابة دخيلة كتلك التي نجدها عند الأكاديين ألا وهي المسمارية، وقد استخدمها غير البابلين الأشوريين الشعب العربي الأوجاريتي. وقد عاون العلماء على حل رموز الخط الثمودي إلمامهم بالخط المعيني السبائي أولا والصفوى ثانيا. واختلف العلماء حول أصالة الخط الثمودي، فذهب نفر منهم (هليفي) و (هوبرت جريمه) إلى أن هناك ثمودية قديمة وهي تلك التي عثر عليها في الحجاز وأخرى حديثة وهي التي وجدت في نجد. وذهب هؤلاء العلماء إلى القول بأن الثمودية القديمة ترجع إلى حوالي عام 1000 ق.م إلا أن هذا التقسيم لا يزال قيد البحث.

وبالرغم من حداثة الاهتمام بهذه الكتابات فإننا نستطيع على ضوئها معرفة اللغة الثمودية معرفة تعاوننا على تاريخ اللغة العربية القرآنية.

فمن ناحية الأبجدية فقد استكملت الإشارات التي تمتاز بها العربية القرآنية على الكنعانية التي لا تشمل إلا على اثنتين وعشرين إشارة هي: «أبجد هوز حطى كلمن سعفص قرشت» بينما أضافت إليها العربية القرآنية وغيرها «تخذ ضزغ».

وغير الأبجدية تتفق الثمودية مع عربيتنا في الإبدال والإعلال والضمائر وأدوات الإشارة والموصول والظرف، كما تغلب على مفرداتها الأصول الثلاثية سواء في الأفعال أو الأسماء، كما أن من أسمائها المذكر والمؤنث والمفرد والمثنى والجمع، والجمع منه السالم ومنه التكسير. كما جاءتنا فيها صيغة (فعيل) الدالة على التصغير وياء النسب و (هاء) التعريف.

أما الفعل فعلاوة على حالاته وصيغه وأوزانه المختلفة التي نعرفها في لغتنا الفصحى فيمتاز أيضاً مثل اللحيانية بصيغة (هفعل).

* * *

أما الكتابات الصفوية فقد عثر على آلاف منها في منطقتي حوران والصفا شرق دمشق لذلك نسبت الكتابة إلى المكان الأخير، ولو أنها وجدت في عدة أماكن أخرى. والصفوية بالرغم من اختلاف خطها عن

كل من اللحياني والثمودي إلا أنها تكاد تتفق معهما في كل شيء وهي بدورها قريبة جداً من العربية القرآنية، ويرجح أن النقوش التي وجدت فيها ترجع إلى ما بين القرنين الثالث والسادس الميلاديين.

والنتائج التي خرجنا بها من هذه اللغات العربية الشمالية تكاد تتفق تماما وتلك التي انتهى إليها المختصون فيما يتعلق بالأوجاريتية.

* * *

هذه هي العربية الشمالية كما جاءتنا في الكتابات والمخربشات، لكن هناك مصدراً آخر جاءنا بمحصول عربي وفير ألا وهو مصدر الرواية فعن طريقها وصلنا الشعر والأخبار وبخاصة تلك المتصلة بأيام العرب. ومن الشعر الجاهلي صحت نسبته لقائليه أو لم تصح نتبين المرحلة التي بلغها الشعر العربي عروضا وفنونا قبيل ظهور الشعر الإسلامي. ومن لغة أيام العرب والأخبار نتعرف إلى فن من فنون النثر هو مرتبة النثر الفني العالي ولغة التخاطب الدارجة وأسلوب هذا الفن يشبه كثيراً لغة الصحافة والإذاعة في عصرنا الحديث.

لكن من حسن حظ العربية والناطقين بها أن بعث اللّه محمداً للناس كافة نبيا ورسولا وأيده بآية هي خير ما عرفته العربية منذ أن ظهرت للوجود أعني القرآن الكريم. فهذا الكتاب العربي لغة وأسلوبا وفنا آية اللّه الناطقة على سمو النثر العربي في ذلك العصر من ناحية ونضج العقلية

العربية من ناحية أخرى، وأن شعبا يخاطب بمثل هذه اللغة لدليل قوي على المرتبة الأدبية الرفيعة التي بلغها القرآن الكريم بما اشتمل عليه من أدب رفيع وقصص بديع وتقنين وتشريع، إلى دعوة دينية سامية لخير أثر للعربية والعروبة حتى هذا العصر.

ولم يقف أثر لغة الوحى عند النبي (ﷺ) وصحبه والمسلمين الأولين من مهاجرين وأنصار بل نجد هذه الرسالة تغير دينا ولغة وأدبا. أما الدين فقد جمع أتباعه على عبادة إله واحد صمد لم يلد ولم يولد، كما عنى بالتقنين المدني فنظم حياة المسلمين ونهض بهم. أما اللغة فقد غنيت بمصدر جمع الشارد والوارد من مفرداتها، كما سجل قواعدها نحوها وصرفها وعنى بالجملة تركيبا وبديعا وبيانا فكان القرآن الكريم وما زال إلى جانب ناحيته الدينية كتاب لغة وأدب، وكتب للعربية الخلود فلم يصبها ما أصاب غيرها من اللغات القديمة كالهير وغليفية واللاتينية واليونانية من تفكك وتحلل وزوال، وستظل هذه العربية حية ما دام في المعمورة مسلم.

أما من الناحية الأدبية فقد وجه القرآن الكريم الأدب العربي وجهة جديدة فبعد أن كان العرب منصرفين إلى الشعر تحولوا تدريجيا إلى النثر، وظهر من بينهم كتاب إلى جانب الشعراء. ولم يقف أثر القرآن الكريم عند هذا فقد كان عاملا قويا في جمع شتات القبائل العربية حول دين واحد ولغة واحدة وثقافة واحدة وهدف واحد، وكانت النتيجة المحتومة لهذا الاتحاد أن تزاوجت اللهجات فظهرت اللغة العربية الإسلامية الجديدة التي لهج بها عرب الجزيرة كافة، وأصبحوا وللمرة الأولى في

تاريخهم يفكرون في لغة واحدة ويتأدبون بأدب واحد ويدينون بدين واحد، وأصبحوا شعبا واحدا وجد في نفسه الحيوية والمؤهلات الاجتماعية التي أهلته لأن يسود العالم فترة طويلة من الزمن.

فالقرآن الكريم وهو دستور العرب والمسلمين دفع بهم خارج الجزيرة فانتشروا في بلاد الفرس والروم وحرروا أطراف الجزيرة من الأجانب كما عبروا آسيا إلى أفريقيا، ولم يمض قليل من الزمن حتى ثبتوا أقدامهم في وادي النيل واستولوا على شاطىء بحر الروم الافريقي، لكن فرحة التحرير ونشوة النصر ولذة الفتح لم تله قادة العرب عن الاحتياط لصيانة العروبة والعربية فالجيوش الإسلامية قد صهرت القبيلة العربية وحولتها إلى قوة متدفقة تؤمن بالعروبة لابكلب أو قيس أو تميم أو قريش ولكنها العروبة الخالصة والعربية الصافية التي امحت فيها خصائص اللهجات وذابت رواسب اللغات التي نطقت بها شعوب الجزيرة العربية في العصور السابقة فخشى قادة المسلمين على هذا النصر الجديد من الانتكاس فحرم القواد على الجنود الإقامة بين السكان الأصليين أو الاختلاط بهم محافظة على الروح العسكرية العربية من الانحلال، كما أمنوا اللغة الإسلامية الجديدة الناشئة من عجمة الفرس ورطانة البيزنطيين فأسسوا في مصر الفسطاط وحشدوا فيها الوحدات المختلفة للجيوش العربية.

وما فعله العرب بمصر فعلوه في الأقطار الأخرى، لكن اهتمام الفاتحين بأمر هذه الأقطار اضطرهم إلى الاتصال بالسكان الأصليين، ونشأ عن

هذا الاتصال ظهور لغة للتفاهم. وقد كان قيام هذه اللغة على حساب فصاحة العربية وخصائصها، وذلك لأن لغة الضاد لها من الخصائص الصوتية والقواعد النحوية مالا يوجد نظيره في اللغات الأخرى، حتى أولئك الأجانب الذين أخذوا أنفسهم بدراستها عجزوا عن تجويدها إذ تنقصهم السليقة العربية والإحساس النحوى المرهف، لذلك أخذت تظهر إلى الوجود لهجات غريبة جديدة لا تستمد أصولها من العربية الفصحى بل من اللغات الأجنبية المحلية، فهي مثلا مصرية في مصر آرامية في الشام فارسية في العراق، ومع تتابع الزمن أخذت هذه اللهجات تنمو وتترعرع حتى قضت بدورها على اللغات الأصلية المحلية والتي استمدت منها سابقا بعض مقوماتها وحلت محلها؛ ففي مصر مثلا قضت على القبطية في القرن الثاني عشر الميلادي وأصبحت العربية المصرية إلى جانب العربية الإسلامية لغة للتخاطب والمعاملات والدواوين.

وساعد على قيام هذه اللهجات العربية المولدة الانحلال الذي طرأ على الدولة العباسية نهائيا في النصف الأول من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) وقيام دويلات إسلامية مستقلة، وهذا الاستقلال السياسي تبعه استقلال لغوي محلي فقد انضمت لهجات كل إقليم بعضها إلى بعض وتألفت منها مجموعات من اللهجات تمتاز كل مجموعة بخصائص نحوية وصوتية وصرفية، وهذه اللهجات الإقليمية تجمعت في العراق والشام ومصر وشمال أفريقيا والأندلس، وكانت من الأهمية

بحيث أن بعض رحالة المسلمين في العصور الوسطى نبه إليها وعنى بها كما صنع المقدسي في وصف رحلته التي قام بها في العالم الإسلامي في القرن الرابع الهجري.

وكما أن العربية الإسلامية ساهمت في خلق العربية المولدة فإن الأخيرة أثرت بدورها في العربية الإسلامية التي كانت مستعملة عند العرب الخلص المقيمين في البلاد المفتوحة، وهكذا تعرضت العربية الإسلامية للأخطار التي كان يخشاها مسلمو صدر الإسلام. ففشى فيها اللحن وكاد يتعطل الإعراب وأصبحت المولدة لا تهدد النثر فحسب بل الشعر أيضاً. لذلك اشتد الخلاف بين علماء اللغة العربية حول هذا التفاعل بين اللغتين وانتهوا أخيراً إلى وجوب العمل على تنقية العربية من الدخيل ووضع كتب في القواعد والنحو.

وكانت النتيجة المحتومة لذلك ظهور اللغة العربية المولدة كمنافسة ومنافسة قوية للعربية الإسلامية، واختصت كل من اللغتين بناحية من نواحي النشاط العقلي فرضيت العربية الإسلامية أن تكون لغة العلم والعلماء وتنازلت لمنافستها عن السوق والسوقة. وقد تمت هذه القسمة في أواخر القرن الثاني الهجري ومنذ ذلك العصر والتنافس قوي جبار بين اللغتين حتى يومنا هذا. ولولا القرآن الكريم أولا والمصالح السياسية ثانيا لقضت المولدة على الإسلامية وبخاصة بعد أن استكملت كل مقومات اللغة الحية فابتدعت فنون الشعر الحديثة من مواليا ودوبيت وكان وزجل وموشحات وغيرها واغتنى نثرها بمختلف الألوان التي تحتاج إليها المفكر العربي الحديث.

لكن يجب ألا يتبادر إلى أذهاننا أن العربية الإسلامية ظلت كما كانت في صدر الإسلام بل تأثرت بالبيئة الإسلامية الجديدة، وأخذت تتطور هي أيضاً لكن في حدود ضيقة. وهذا التطور الأدبي لاءمه تطور نحوي تصوره لنا مسائل الخلاف بين الكوفة والبصرة. كما يصور لنا الجاحظ وكتبه المرتبة الرفيعة العالية التي بلغتها العربية الإسلامية في عصرها الذهبي الممتد من القرن الثاني إلى منتصف القرن الثالث الهجري. وإذا كان الجاحظ يمثل الكتاب المبرزين في ذلك العصر فأبو تمام يأتي في مقدمة شعرائه.

لكن ما كادت شمس القرن الثالث الهجري تغرب وتميل كفة الأتراك في المجتمع الإسلامي وبخاصة أيام الخليفة المعتصم حتى بدت على العربية الإسلامية عوامل التدهور والاضمحلال؛ فالأتراك وبخاصة رجال الجيش كانوا يجهلون العربية إسلامية ومولدة وكان حظهم من الثقافة العامة ضحلا، لذلك سرى الضعف إلى مختلف الطبقات حتى إلى القصر والدواوين، وهذا ما حدا بابن قتيبة في أن يكتب أكثر من كتاب لتعليم الكتّاب وموظفي الديوان التحرير والإنشاء.

ولم ينج من هذا الوباء اللغوي الشعراء أنفسهم فشتان بين شعر البحتري وابن الرومي من ناحية وبين شعر سلفهما أبي تمام من ناحية أخرى. وهذه الهاوية التي تردت فيها العربية على يد رجال الجيش من الترك هي من البواعث القوية التي دفعت حركة الاعتزال إلى الظهور والعناية بالعربية والأخذ بيدها.

وليست العربية الإسلامية هي الوحيدة التي أصابتها هذه الضربة على يد هؤلاء العسكريين بل العربية المولدة أيضاً، وقد أدى هذا الضعف العام إلى أن النحويين أنفسهم كانوا في ختام القرن الثالث الهجري عاجزين عن استخدام العربية الإسلامية اللهم إلا في الأندية الخاصة، ورسائل ثعلب بما فيها من مخالفات نحوية صريحة، إلى جانب لحن الأحول والأخفش الأصغر خير صورة تمثل عربية ذلك العصر. وقد صور لنا قدامة بن جعفر الحالة التي بلغتها العربية في ذلك الوقت فذكر في الكتاب المنسوب إليه وهو نقد النثر ما نصه:

«وأما المواضع التي يجب أن يستعمل اللحن فيها ويتعمد له في أمثالها ويكون ذلك مما يوجه الرأي فهو عند الرؤساء الذين يلحنون والملوك الذين لا يعربون فمن الرأي لدى العقل والحنكة والحكمة والتجربة ألا يعرب بين أيديهم وأن يدخل في اللحن مدخلهم ولا يريهم أن له فضلا عليهم؛ فإن الرئيس والملك لا يحب أن يرى أحداً من أتباعه فوقه، ومتى رأى أحدا منهم قد فضله في حال من الأحوال نافسه وعاداه وأحب أن يضع منه». (طبع بولاق ص 162).

ونتيجة أخرى من نتائج هذا التطور الذي وقع للعربية؛ انصراف اللغويين والنحويين عن رجال البادية وعدم الرجوع إليهم فيما يعرض لهم من مشاكل، وذلك لأن القوم في ذلك العصر كانوا يعتبرون ألفاظ البادية نوعا من التشدق والتقعر؛ لذلك انصرف اللغويون عن الجمع إلى الدرس والبحث والنقد لتعليل القواعد أولا وتخريج الشواذ ثانيا.

ومن أوائل العلماء اللغويين الذين سلكوا هذا الطريق ابن جنى الذي توفى في أواخر القرن الرابع الهجري، فهذا العالم لم يقف عند البحث والتحليل بل أخذ نفسه بنقد الأعراب واتهم بعضهم في لغته فذكر في خصائصه أن الأعراب قد يقعون في اللحن كغيرهم. ونفس هذه النظرة الناقدة أثرت في كثيرين من معاصري ابن جنى وخلفه.

وفي أواخر القرن الرابع أيضاً ظهر السلجوقيون وأسسوا دولة حكمت حتى منتصف القرن السابع الهجري وقد تمكن هؤلاء الأتراك من الحكم والسلطان، كما حلت الفارسية محل العربية كلغة للقصر وأخذت تناهض العربية وتنافسها في الأدب. ولولا أن العربية هي لغة الإسلام ولولا أن السلاطين أيقنوا أن بقاءهم في الحكم رهن باحترام الإسلام ورجاله ما عنى السلاجقة بالقضاء ورجاله ولا الإدارة والقائمين عليها، لذلك أخذوا منذ أواسط القرن الخامس في تأسيس المدارس لتخريج رجال القضاء والإدارة. ولعل أشهر مدرسة عرفها ذلك العصر في الشرق هي المدرسة النظامية ببغداد والتي أسست عام 495 هـ وتولى التدريس بها نخبة من أفاضل العلماء ولغوبي ذلك العصر أمثال التبريزي وعلى بن زيد والجواليقي.

وفي القرن السادس الهجري ظهر أمثال الحريري صاحب المقامات، ودرة الغواص في أوهام الخواص، ومن رسالته الأخيرة ندرك أنه كان من الحريصين على تنقية اللغة من الأخطاء والمحافظة عليها من اللحن.

ومن مؤلفات رجال ذلك العصر تتضح لنا الحالة التي آلت إليها العربية، كما أن جهل القوم بقواعد العربية دفعهم إلى العجز عن التفرقة بين حالات الإعراب المختلفة من رفع ونصب وجزم، كما انقرضت صيغ وحلت محلها أخرى.

وهذا التدهور الذي انحدرت إليه العربية كان طبيعيا وذلك بسبب الانحلال السياسي والاضطرابات الداخلية والحروب الصليبية. فكل هذه العوامل مجتمعة صرفت القوم عن اللغة والعناية بها.

ومما زاد الطين بلة الغزو المغولي فقد أصاب من العروبة والعربية مقتلا عندما اكتسح المغول بغداد عام 656 هـ، ولولا قيض اللّه للإسلام والعروبة مصر التي ردت المغول على أعقابهم وأهلكتهم في الشام وطهرت البلاد منهم لأصبح الحال غير الحال الذي نحن عليه الآن، وأن مصر بنصرها هذا وانتصارها للعروبة والعربية انتزعت زعامة العالم الإسلامي لنفسها وأصبحت في عهد السلاطين المماليك الدولة المرموقة والأمة المهابة وبخاصة بعد أن انتصرت على الصليبيين وشردتهم.

مميزات اللغة العربية

وتمتاز اللغة العربية القرآنية عن أخواتها بمميزات أهمها :

1 ـ أداة التعريف :

لا تعرف الأكادية والحبشية أداة خاصة وتستخدم الأرامية (الألف) في نهاية الكلمة المراد تعريفها، وتستعمل الكنعانية الحرف (هـ) مع

تشديد الحرف الذي ما لم يكن حرفاً حلقيا فيستعاض عن التضعيف بالمد التعويضى أو التضعيف التقديري.

وفي العربية الجنوبية ولهجة نجد تستخدم الطمطمانية، كما تلحق السبائية (النون) أحيانا بالمعرف.

أما اللغة العربية فتتفق والكنعانية إذ نجد بعض اللهجات العربية الشمالية كالثمودية واللحيانية والصفوية تستخدم (هـ) أو (هـ ن) أو (هـ ل) كما نجد لهجات أخرى كالحجازية تستخدم (ال).

2 ـ يجمع المذكر عادة بإضافة (و ن) رفعا (ين) نصبا وجرا و (و) أو (ي) في حالة الإضافة.

3 ـ جموع التكسير.

4 ـ التثنية مضطردة في العربية القرآنية بينما آثارها في سائر اللغات العربية الجاهلية.

5 ـ الإعراب.

لكن ألا يتبادر إلى أذهاننا أن هذه المميزات لازمت عربيتنا منذ وجودها حتى اليوم فنحن لا نستطيع أن نعرف إلى أي حد تتفق العربية كما وصلتنا قبيل الإسلام والعربية السابقة والتي حفظت لنا بعض آثارها في اللغات العربية الأخرى، وذلك لأن هذه الآثار اللغوية القديمة إن دلت على شيء فعلى تنوع الصيغ وتعدد الحركات وذلك لأن العربية القرآنية كانت على اتصال مستمر باللغات العربية الجاهلية الأخرى فساعدها هذا الاتصال على الاحتفاظ ببعض مفردات وخصائص شقيقاتها التي

اختفت من مسرح الحياة الرسمي وظلت حية بين طبقات الشعب؛ فنحن ما زلنا نجد في العربية مثلا وزن (هفعل) وهووزن كثير الورود في الكنعانية ويكاد يختص بها مثل (هراح) إلى جانب (اراح) و (هراق) إلى جانبي (أراق) و (هراد) إلى جانب (أراد).

كذلك ما زلنا نجد في عربيتنا صيغتى (شفعل) و (سفعل) وهاتان صيغتان أكاديتان مثل (شحذ) فأصلها (ش وحذ) وشحذ السكين أحده، (حذ) أي أسرع قطعه. وكذلك (شخص) فأصلها (ش وحص) وحص الشعر حلقه وأذهبه، وفي الحديث فجاءت سنة حصت كل شيء أي أذهبته. كذلك (شخر) أصلها (س وخر) وخر الماء خريرا صات. وخر النائم غط. وفي العربية الدراجة ما زلنا نجد (شرمط) وأصلها (ش ورمط) ويقال رمطه عابه وطعن عليه. و (شندل) أصلها (ش وندل) من (ش ونذل) والنذل الخسيس من الناس المحتقر في جميع أحواله.

ومن أمثلة (سفعل) نسوق مثلا (سدل) أصلها (س ودال) و (سحت) أصلها (س وحت) وسحت الشيء استأصله من حت و (سطح) أصلها (س وطحا) وغيرها.

وإذا علمنا أن اللغة العربية سلخت من عمر الدهر مئات القرون أدركنا أنها خضعت بحكم هذا العمر المديد واتصالها باللغات واللهجات العربية الجاهلية لتطورات لغوية كثيرة، لكن مما يؤسف له حقا أن مثل هذه التطورات لا نتبينها بوضوح في الآثار التي وصلتنا اللهم إلا ما جاءنا في كتب اللغة أو الأدب أو السير أو أيام العرب. ومرجع هذا الغموض

الكتابة العربية في مراحلها المختلفة سواء قبل الميلاد أو قبل الإسلام أو بعد الميلاد وبعد الإسلام وذلك لأن أبجديتنا أبجدية حروف صامتة واللغة العربية القرآنية مثلها مثل سائر اللغات العربية الجاهلية تكتفي بالحروف الصامتة وتهمل الحركات والإشارات الأخرى الدالة على الضغط والنبرة، ومن هنا أصبح من الممكن أن كل عربي يقرأ النص في لهجته الخاصة التي قد تكون مغايرة للهجة الأصلية التي ينتسب إليها هذا النص.

أما الحركات التي وجدت فهي متأخرة وقد وضعت في الواقع لتطابق ضربا خاصا من ضروب الأدب العربي ألا وهو الشعر، ومن ثم حملت فيما بعد على سائر الفنون ونسى المتقدمون أن ما يصدق على الشعر قد لا يصدق على النثر، وما يصدق على الضربين في عصر من العصور قد لا يصدق في عصر آخر، فالشاعر التميمي مثلا قد يضطره فن الشعر إلى فتح حرف المضارعة بينما يكسره في لغته الخاصة. ومن هنا أصبحت هذه الحركات وقفاً على ضرب خاص من ضروب الأدب وليست عامة للغة العربية سواء كانت جاهلية أو قرآنية. والشيء الجدير بالذكر أنه لم يصلنا نص نعرف منه كيف نطقه صاحبه بل حتى القصيدة الشعرية لا نعرف لها إلا هذا النطق التقريبي الذي تحدده لنا هذه الحركات المتأخرة وهو نطق يتفق وزمن نطقه، ولا يشترط أن يكون قديما، والعكس أن هذا النطق الإسلامي حمل على الآثار الأدبية القديمة وكان يجب أن يفرق بين الحالين.

ولعل مخالفة الإملاء للنطق أحيانا مصدرها تطور نطق الكلمة أو تعدده، وهذه الظاهرة مشاهدة في رسم المصحف الكريم والآثار الأدبية الأخرى سواء كانت عربية قرآنية أو جاهلية قديمة. ففي العبرية مثلا نجد (صان) أي (ضأن) فإنها تنطق (صون)، وكذلك (راش) أي راس فإنها تنطق (روش) وهلم جرا، لذلك لا نستطيع الاستفادة من نظام الحركات في العربية لتأريخها، وخير لنا أن نعتمد على الحروف الصامتة فقط، ومن سوء الحظ أن عثمان بن عفان قضى على هذه الخلافات القبلية لحد كبير عندما أقدم على جمع القرآن تجنبا للاختلاف وقضاء على المنازعات. فعمل عثمان وإن كان قد أفاد الإسلام والمسلمين إلا أنه كان على حساب تاريخ تطور اللغة العربية. هذا مع مراعاة أن القرآن الكريم والشعر الجاهلي مثلا لن يقدما لنا صورة صادقة للغة العربية في ذلك العصر كلغة شعبية كلغة معاملة وتخاطب إذ أن للشعر العربي لغته الخاصة كما أن للوحي لغته الخاصة أيضاً، وما يستحب في القرآن الكريم قد لا يستحب في الشعر مثلا فابن قتيبة يذكر أن ابن قيس الرقيات أنشد عبد الملك :

إن الحوادث بالمدينة قد　　أوجعتني وقرعن مروتيه

وجببني جب السنام ولم　　يتركن ريشا في مناكبيه

فقال له أحسنت لولا أنك خنثت في قوافيه، فقال «ما عدوت كتاب اللّه، ﴿ما أغنى عني ماليه هلك عني سلطانيه﴾».

لذلك لن نستطيع أن نقرر أن الظواهر اللغوية التي نجدها في الشعر أو القرآن الكريم كظاهرة الإعراب مثلا هي ظاهرة عربية عامة لن يستخدمها

الرجل العامي في معاملاته اليومية، وبتعبير أدق أن هذا النحوالذي حفظته لنا هذه الكتب التي بأيدينا ليس نحو اللغة العربية عامة بل نحو فن خاص من فنون الأدب العربي الرفيع، بل وحتى الشعر العربي لوكان قد جاءنا كما هو لخرجنا منه بقواعد لا شك في أنها تتعارض وكثير من القواعد التي يفرضها علينا النحو الرسمي. فرواة الشعر في معظم الأحوال لم يروا لنا إلا نوعا خاصا من أنواع الشعر وهو الشعر النجدي أو ما قيل في لغة نجد الشعرية، فابن قتيبة يذكر مثلا عند حديثه عن الشاعر عدي بن زيد العبادي «إن العرب لا تروي شعره لأن ألفاظه ليست بنجدية».

ثم أين مراعاة قواعد النحو مثلا في قول امرىء القيس :

فاليوم أشرب غير مستحقب اسما من اللّه ولا واغل

فجزم (اشرب)

وقال الآخر :

رحت وفي رجليك ما فيها وقد بدا هنك من المئزر

أراد (هنك) بالرفع أعربه بالحركة في حال الإضافة وهي لغة وسكنه تشبيها بعضد.

هذه بعض الأمثلة أشير إليها والحقيقة التي تجب الإشارة إليها هي أن قدسية القرآن الكريم حالت دون انتصار لغة الكثرة المطلقة من الناطقين بالعربية على لغة الشعر والنثر الفني وذلك لأن هذا الانتصار لن يتم إلا على حساب القرآن الكريم لذلك اتسعت شقة الخلاف بين لغة الأدب

الميتة ولغة الشعب الحية، لكن حيث تنعدم هيمنة القرآن وسطوته تقوى لغة الشعب وتسود وتتبوأ مكانتها كلغة للعامة والخاصة وكلسان للأدب الشعبي وترجمان للقرائح الرفيعة كما هو مشاهد في اللهجة العربية المالطية المسيحية: لكن ليس معنى هذا أن اللغة العربية الشعبية استسلمت لهذه اللغة الفنية بل كافحت ونجحت في فرض نفسها وبسط سلطانها على الميادين التي كان يجب أن ترفرف عليها راية اللغة الأخرى. ففي الشعر ظهرت الفنون السبعة وفي التدوين ظهرت القصص الشعبية وما إليها.

* * *

وطن اللغة العربية القرآنية

سبق لي أن قررت أن اللغة العربية الشمالية خليط من لغات ولهجات والآن أقرر أن العربية الشمالية عبارة عن مجموعتين لغويتين عظيمتين؛ مجموعة حجازية أو غربية أو كما تسمى أحيانا قرشية، ومجموعة تميمية أو شرقية أو كما تسمى أحيانا نجدية.

أما لفظ حجاز فمعناه في الأصل (الحبل) الذي يحجز به البعير، والحجاز الجبال، والحجاز مكة والمدينة والطائف ومخالفيها كأنها حجزت بين نجد وتهامة. ويذكر البكري في معجم ما استعجم عن الكلبي أن الحجاز ما حجز فيما بين اليمامة والعروض وفيما بين اليمن ونجد فصارت نجد ما بين الحجاز إلى الشام إلى العذيب والطائف من نجد والمدينة من نجد وأرض العالية والبحرين إلى عمان من العروض.

وتهامة ما ساير البحر منها مكة والعبر والطور والجزيرة، ويذكر البكري أيضاً نقلا عن عمر بو شبة أن الحجاز اثنتا عشرة دارا: المدينة، وخير، وفدك، وذو المروة، ودار بلى، ودار اسجع، ودار مزينة، ودار جهينة، ودار بعض بني بكر بن معاوية، ودار بعض هوازن، وجل سليم، وجل هلال.

أما نجد من بلاد العرب فهو خلاف الغور، ويعتقد أن هذه المنطقة هي الوطن الأصلي للغة العربية الشمالية وأعلاه تهامة واليمن وأسفله العراق والشام وأوله من جهة الحجاز ذات عرق. وإذا مددنا خطا من الغرب إلى الشرق مبتدأ بجبل رضوي ومنتهيا في الخليج الفارسي شمالا، ومن تثليت غربا إلى البحرين شرقا لحصرنا وطن اللغة العربية القرآنية، وهو أكثر من ثلث وأقل من نصف الجزيرة العربية. وإذا استثنينا الجهات البركانية في هذا الإقليم خاصة في نجد وجدنا أن سائر الأراضي صالحة للزراعة، وقد عملت الحكومات المتعاقبة على إقرار البدو هناك وتشجيع الزراعة خاصة في الإقليم الممتد بين (حايل) و (وادي الرمة) حيث توجد قرى عامرة بعضها قديم والبعض الآخر حديث.

أما الصقع الواقع جنوب وادي الرمة ويمتد غربا حتى حرة الحجاز ويخترقه الطريق من (حايل) إلى مكة فأحسن خصوبة وأكثر إنتاجا؛ ففي هذا الصقع وفي الإقليم الآخر المتصل بالحجاز خاصة حول المدينة اتجه اهتمام الدولة العربية الفتية في القرن السابع الميلادي؛ إذ نجد الخليفة الأموي معاوية يوجه اهتماما كبيراً إليه ويقيم فيه كثيراً من الإقطاعيات الزراعية التي عنيت خاصة بزراعة النخيل والحبوب، وظل الأمر كذلك

حتى جاء العباسيون فأهملوه لأسباب سياسية وأصبح عرضة لهجمات البدو وخاصة في القرن الرابع وخلفوا وراءهم بعض المدن والقرى مثل (ربذة) الواقعة جنوب شرق المدينة، وبها عقد عام 416م يوم التحالف الذي أرخت به العرب ما يقرب من قرنين. ويحدثنا البكري في معجمه وابن سعد في طبقاته وياقوت في معجمه والهمداني وغيره من المستشرقين أمثال (لندبرج) و (دوتي) و (فلهوزن) و (هوبرت) وغيرهم عن ماضي هذا الإقليم وحاضره سواء من الناحية التاريخية أو الجغرافية أو اللغوية.

في هذا الوطن كما ذكرت نشأت اللغة العربية، وفي هذا الوطن أيضاً تشعبت إلى مجموعتين عظيمتين شرقية أو تميمية وغربية أو حجازية. فما هي تميم؟

تميم قبيلة عربية تنسب إلى تميم بن مر بن اد بن طانجة بن الياس بن مضر وهنا يتصل تميم هذا بمضر ويصير له المكان الأول عند مضر؛ لذلك يطلق اسمه غالبا على سائر المضريين أو سائر القبائل المضرية قيس وربيعة أقرب القبيلتين إلى تميم هي ربيعة، وليس معنى هذا أن صلة القرابة بين تميم وربيعة أقوى منها بين تميم وقيس بل وجه الصلة القوية بين تميم وربيعة هو وجه لغوي؛ فمثلا جاء في الحديث الشريف «الجفاء في هذين الجفين ربيعة ومضر».

ومصادرنا لدراسة تميم عربية فقط وذلك لأن المصادر اليونانية واللاتينية سكتت عن تميم الذين يبدأ تاريخهم بكثير من القصص

والأساطير التي لا يمكن أن تكون تاريخية حقيقية، فياقوت مثلا يذكر في معجمه، وابن قتيبة في معارفه أن قبر صاحب الاسم الذي ينتسب إليه التميميون موجود في (مران) ويذكر ابن دريد في الاشتقاق أنه ولد لتميم ثلاثة أولاد زيد مناة وثمود والحرث.

أما التاريخ الحقيقي لهذه القبائل فلم يذهب أبعد من القرن السادس الميلادي؛ ففي ذلك العصر بلغت تميم مركزاً ممتازاً جدا وعلا شأنها وارتفع قدرها، فقد كانت تنزل شرق الجزيرة واستوطنت نجدا وجزءا من البحرين واليمامة وامتدت منازلها جنوبا حتى (دهناء) وشمالا شرقيا حتى الفرات، وفي الشمال جاورت أسدا، وفي الجنوب الغربي باهلة وغطفان. وقد اعتاد التميميون في منازلهم مخالطة بعض عناصر قبائل عبد القيس وحنيفة خاصة في الشرق والجنوب، وبكر وتغلب في الشمال.

وكانت تميم متبدية تؤثر حياة البداوة على الحضر وإن كانت قد نزلت (هجر الإحساء) والجرعاء للاتجار وفي المناسبات الخاصة.

ويحدثنا التاريخ أن منذر بن سارا صاحب هجر عقد مع النبي حلفا، ويتجلى لنا من بعض أسماء الاعلام التميمية أن بنى تميم كانوا يقدسون اللاة ومناة والعزى وكذلك شمس التي كان ينطقها التميميون (شُمْس) بضم الشين وتسكين الميم. وكان يقوم بالسدانة بطن تيمي هو بطن (بنو أوس بن مخاشن).

ومن أشهر القبائل التميمية التي انحدرت من (اد) ضب وعكل وتيم وعدى وثور، كما نعلم من المصادر التي وصلتنا أن المسيحية شقت

طريقها إلى بعض التميميين، ووجدت عند بعضهم قبولا. وقد أطلق على أتباعها اسم (عباد) وكانوا يقيمون في الحيرة وزعيمهم الشاعر المشهور عدى بن زيد.

والشيء الجدير بالملاحظة هنا أن ترامي أطراف منازل تميم أدى إلى تشعب القبيلة إلى بطون وأفخاذ، ومع مرور الزمن أخذ كل فخذ يعتد بنفسه مما أدى إلى قيام خصومات وحروب، ولا أدل على عنف هذه الخصومات من هذا النزاع القوي الذي قام بين جرير والفرزدق. فالشاعران تميميان ينتميان إلى بطنين مختلفين لكنهما ذهبا في هجائهما بعيدا. إلا أننا يجب أن نفهم أن هذه الخصومات لم تقف عقبة دون سيادة السلم في تميم، فصاحب الفهرست يحدثنا أن حلفا عقد بين بني يربوع وبني نهشل، كما يظهر أن النسابة الشهير أبو اليقظان سحيم بن حفص المتوفي عام 190 هـ وضع كتابا أطلق عليه (كتاب حلف تميم بعضها بعضاً) [1].

ومن القبائل التميمية الأخرى التي جاءنا الكثير من أخبارها زيد مناة وعمرو، ومن الثانية تشعبت الأنبار بينما تنقسم الأولى إلى سعد ومالك وإلى سعد تنتمي منقر وعطارد، وإلى مالك ترجع حنظلة ودارم، وتنقسم الأخيرة إلى بطون، كما تفرعت عن حنظلة يربوع التي نشأت منها رياح وكليب ـ قبيلة جرير ـ ومن دارم نشأت نهشل ومجلشع ـ قبيلة الفرزدق.

1 ـ راجع فهرست ابن النديم، ص 94.

وهناك حقيقة يجب التنويه بها ألا وهي أن الأخبار التي جاءتنا عن تميم وبطونها وأعمال أبطالها ومغامرات فرسانها يفوق ما تجمع لدينا خاصا بسائر القبائل العربية مجتمعة، ولعل السر في ذلك هو كثرة شعرائها، فقد خرجت عدداً كبيراً منهم تركوا أشعاراً كثيرة كانت وما زالت ثروة عظيمة للغويين والمفسرين الذين كانوا يبحثون عن الأسانيد اللغوية والتاريخية لتدعيم آرائهم، فلدينا مثلا الأيام و هي خاصة بتميم، والفضل في جمعها يرجع إلى أبى عبيدة، كما نجد أياما أخر جمعها ابن الكلبى وهذه الأيام وغيرها نجدها في شروح نقائص جرير والفرزدق والأغاني والعقد الفريد وابن الأثير.

ومن هذه الأيام نخرج بنتيجتين هامتين: الأولى العلاقات بين تميم وجيرانها من العرب خاصة بكر بن وائل، والثانية العلاقات بين تميم وملوك الفرس الذين نجحوا في بسط سلطانهم على بكر وتغلب وحاولوا بسط نفوذهم على تميم الذين كانوا خطراً شديدا يهددون طرق المواصلات الفارسية خاصة تلك التي كانت بين اليمن وبين مناطق نفوذهم في شرق البلاد العربية.

ومن أخبار هذه الأيام نعلم أيضاً أن شابور الثاني أرسل حملة إلى (هجر)، كما عاقب كسرى الثاني القبائل التميمية لاعتدائها على قافلة فارسية كانت قادمة من اليمن إلى المدائن، ولعل أشهر يوم بين تميم والفرس هو هذا اليوم الذي يعرف باسم يوم المشقر [2] وهو اسم حصن بالبحرين قديم قال المخبل:

2- راجع الطبري جـ 1 ، ص 984 - 988 (طبع الخارج).

فلئن بنيت لي المشقر في صعب تقصر دونه العصم
لتنقبن عني المنية إن اللّه ليس كعلمه علم

وقال فيه لبيد يصف بنات الدهر :

وانزلن بالدومى من رأس حصنه وانزلن بالأسباب رب المشقر

ولما جاء الإسلام ظلت تميم كسائر القبائل العربية الشرقية بعيدة عنه حتى كتب للإسلام النصر وفرضت المدينة نفسها على قلب الجزيرة فأقدمت تميم وأرسلت في العام الهجري الثامن رسولا إلى المدينة فعقد مع النبي حلفا لكن يظهر أن إسلامهم كان سطحيا، إذ سرعان ما ارتدوا عقب انتقال النبي (ص) إلى الرفيق الأعلى، واستردوا حريتهم وقامت تميم في حركة الردة بدور هام إذ ظهرت فيهم النبية (سجاح) لكن نشاط خالد أرجع تميما إلى حظيرة الإسلام. ولم يمض زمن طويل حتى أخذت القبائل التميمة تكون وحدات الجيوش الإسلامية القوية التي اتجهت شرقا نحو فارس حيث عسكرت في موضعي الكوفة والبصرة، وفيما بعد تقدمت إلى خراسان وغزتها ثم استوطنتها. وكانت هذه العناصر التميمية هي الغالبة في تلك الجهات وظل الحال كذلك حتى العصر العباسي.

وكانت تميم في الإسلام مشهورة بالشجاعة وفنون الحرب شأنها في الإسلام شأنها في الجاهلية. ومن الجدير بالذكر أن النزاعات التي قامت في العصر الأموي كانت تميم هي العنصر الهام فيها ولو أن التميميين لم يشتركوا في حرب قيس وكلب إلا أنهم كانوا هم الخوارج، فمنذ ظهور هذه الحركة وكانت زعامتها في يد بني تميم فزعيم الأزارقة قطرى بن الفجاءة ومعظم أنصاره كانوا من تميم، كذلك خرج من هذه القبائل

التميمية البطل المشهور ابراهيم ابن الأغلب فهو من فرع سعد بن زيد مناة، وابراهيم هذا هو الذي كون أسرة الأغالبة في أفريقية.

* * *

أما فيما يتعلق بلغة تميم فيجب أن نرجع بها إلى ما قبل الإسلام وقبل الميلاد وإن كانت لم تعرف قبل ذلك بهذا الاسم إذ لم يصلنا من الكتابات ما يؤيد أن هذه اللغة التميمية التي سأعرض لها هنا لغة تميمية، وكل ما نعرفه عنها أنها لغة عربية كانت معروفة لدى سكان بابل واشور، ويرجح أن هذه اللغة هي لغة سكان الجزيرة في ذلك الوقت أعني وقت اتصال البابليين الأشوريين بسكان شرق الجزيرة.

وأقدم نصوص عربية وصلتنا هي تلك التي نجدها في أسماء الاعلام الواردة في البابلية الأشورية أعني أسماء أسرة حمورابي ـ وهي ترجع إلى حوالي عام 2000 ق.م ولما كانت معظم هذه الأسماء عبارة عن جمل أصبح من السهل اليسير فهم أو إدراك بعض القواعد النحوية للغة العربية واللغة العربية الشرقية بصفة خاصة، أو ما يعرف فيما بعد باللهجة التميمية. وقد وصلنا من دراسة هذه العبارات التميمية القديمة تجاوزاً إلى النتائج الآتية :

1 ـ الضمير المتصل للمتكلم هو (ي) مثل عمي أي شعبي أو قومي.

2 ـ الضمير المتصل الغائب هو (و) مثل شمو أي اسمه.

وهذه الظاهرة تذكرنا بالصيغة التي ما زالت حية في لغتنا اليومية الدارجة إذ يقال (اسمو) بالواو فقط.

3 ـ الضمير المتصل للمتكلمين هو (نا) مثل آلنا أي الهنا.

كذلك من هذه الأسماء التي وصلتنا نتبين أن أداة النسب هي (و) أو (يو). كما يلاحظ أن أكثر الصيغ استعمالا كانت (فعل) بفتح العين وأقلها (فعل) بكسر العين أو ضمها. أما صيغة (افعل) فهي أكثر الصيغ وروداً خاصة من أسماء القبائل مثل (اخلم). كما عثر أيضاً على صيغة (مفعول) مما يدل على قدمها في اللغة.

وفيما يتصل بصيغ الأفعال، فقد عثرنا على وزن (فعل) في مثل صدق كما نجد المضارع (يفعول) مثل يعقوب و(يفعل) مثل ينتن أي يعطي ويملك، وهناك نجد صيغة (فعال) مؤنث (فعل) مثل لخم ومؤنثة لخام (اسم الهين أكاديين). كما عثر أيضاً على وزن (فعالة) مثل تهامة وهي إحدى المعبودات البابليات الأشوريات. ويستخدم هذا اللفظ في الأكادية للتعبير عن (بحر) وهو مؤنث لفظ (تهم).

وقد ذكر النحويون واللغويون كثيراً من خصائص اللهجة التميمية فأحمد بن فارس يذكر في الصاحبي في (باب اللغات المذمومة) شيئا كثيراً من خصائص التميمية، فهو يتحدث عن (عنعنتها) وإلحاقها القاف باللهاة. ويذكر السيوطي في الفصل الثاني من مزهره في معرفة الفصيح من العرب عن أبي نصر الفارابي أنه ذكر في أول كتابه المسمى بالألفاظ والحروف: «كانت قريش أجود العرب انتقادا للأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق وأحسنها مسموعا وأبينها إبانة عما في النفس، والذين عنهم نقلت اللغة العربية وبهم اقتدى وعنهم أخذ

اللسان العربي من بين قبائل العرب هم قيس وتميم وأسد فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه وعليهم اتكل في الغريب وفي الاعراب والتصريف ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم، وبالجملة فانه لم يؤخذ عن حضري قط، ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم فإنه لم يؤخذ لا من لخم ولا من جذام لمجاورتهم أهل مصر والقبط، ولا من قضاعة وغسان واياد لمجاورتهم أهل الشام وأكثرهم نصارى يقرأون بالعبرانية، ولا من تغلب واليمن فانهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان، ولا من بكر لمجاورتهم للقبط والفرس، ولا من عبد القيس وازد عمان لأنهم بالبحرين مخالطين للهند والفرس، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة، ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة، ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم، ولا عن حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم، والذي نقل اللغة واللسان العربي عن هؤلاء وأثبتها في كتاب فصيرها علما وصناعة هم أهل البصرة والكوفة فقط من بين أمصار العرب انتهى» :

والواقع أن بني تميم هم الذين حافظوا على العربية القديمة الصحيحة شعراً ونثراً وخطابة وذلك بسبب ظهور كثيرين من الشعراء. أمثال أوس بن حجر وفيه يروي ابن قتيبة عن أبي عمرو بن العلاء أنه قال: «كان أوس شاعر مضر حتى أسقطه النابغة، وزهير فهو شاعر تميم في الجاهلية.

ومن شعرائها أيضاً سلامة بن جندل وقد كان أيضاً من فرسان تميم المعدودين، وسليك بن سلكة، وعبدة بن طبيب، وعدي بن زيد، ومالك ومتمم ابنا نويرة وغيرهم»:

وفي العصر الأموي نجد غير جرير والفرزدق البعيث وكثير وثابت قطنه والعجاج ورؤبة. والشيء الجدير بالذكر أن المعاجم التي وصلتنا وكثيراً من المصادر العربية القديمة تقرر أن اللغة التميمية هي اللغة التي عليها الكثرة المطلقة من أبناء اللغة العربية مما يؤيد أن قواعد هذه اللغة يجب أن تكون هي القواعد الصحيحة للغة العربية، ومن أمثلة هذه الإشارات التي وصلتنا ما جاء في لسان العرب (جـ 20 ص 283): «وزعم سيبويه أنهم يقولون تقي اللّه رجل فعل خيراً يريدون اتقى اللّه رجل فيحذفون ويخففون. قال وتقول انت تتقي اللّه (بفتح التاء الأولى) وتتقي اللّه (بكسرها) على لغة من قال تعلم (بفتح التاء) وتعلم (بكسرها) وتعلم بالكسر لغة قيس وتميم وأسد وربيعة وعامة العرب. وأما أهل الحجاز وقوم من أعجاز هوازن وأزد السراة وبعض هذيل فيقولون تعلم (بفتح التاء) والقرآن عليها. قال وزعم الأخفش أن كل من ورد علينا من الأعراب لم يقل ألا تعلم بالكسر قال نقلته عن نوادر أبي زيد».

ويحدثنا سيبويه في أكثر من موضع عن وجوه الخلاف بين تميم والحجاز ويذكر كيف يراعي التيميمون القياس وكيف أن لغتهم هي لغة العرب حقا، من ذلك ما جاء في باب ما تكسر فيه أوائل الأفعال المضارعة.. وذلك في لغة جميع العرب إلا أهل الحجاز [3].

3 ـ راجع سيبويه، جـ 2، ص 275 ـ 277 (طبع أوربا).

ويذكر ابن جني في خصائصه: (جـ 1 ص 130) : «وإن شذ الشيء في الاستعمال وقوي في القياس كان استعمال ما كثر استعماله أولى وإن لم ينته قياسه إلى ما انتهى إليه استعماله. من ذلك اللغة التميمية في (ما) هي أقوى قياسا وإن كانت الحجازية أسير استعمالا، وإنما كانت التميمية أقوى قياسا من حيث كانت عندهم كـ (هل) في دخولها على الكلام مباشرة كل واحد من صدري الجملتين الفعل والمبتدأ كما أن (هل) كذلك، إلا أنك إذا استعملت أنت شيئا من ذلك فالوجه أن تحله على ما كثر استعماله وهو اللغة الحجازية، ألا ترى أن القرآن بها نزل. وأيضاً فمتى رابك في الحجازية ريب من تقديم خبر أو نقض النفي فزعت إذ ذاك إلى التميمية فكأنك من الحجازية على حرد وان كثرت في النظم والنثر».

وأفرد السيوطي في المزهر بابا أطلق عليه: ذكر ألفاظ اختلفت فيها لغة الحجاز ولغة تميم: جاء فيه وقال أبو محمد يحي بن المبارك اليزيدي في أول نوادره: أهل الحجاز برأت من المرض وتميم برئت. أهل الحجاز أنا منك براء وتميم وسائر العرب أنا منك برىء واللغتان في القرآن. أهل الحجاز يخففون الهدي يجعلونه كالرمي وتميم يشددونه يقولون الهدي كالعشي والشقي. أهل الحجاز قلوت البر وكل شيء يقلي فأنا أقلوه قلوا وتميم قليت البر فأنا أقليه قليا»:

ويقول ابن عقيل في شرحه لقول ابن مالك :

وبـأولى أشـر لجمـع مطـلقـا والمد أولى ولدى البعد انطقا

وفيه لغتان المد وهي لغة أهل الحجاز والقصر وهي لغة بني تميم.

وكذلك يفهم الخلاف القائم بين الضميرين المتصلين (هو) و (هـ) و (هي) و (هـ) في مثل قوله تعالى في سورة الأعراف الآية الثامنة بعد المائة وسورة طه الآية السابعة (فإنه) والقصص الآية التاسعة والعشرون (بأهله). وقد عرض سيبويه [4] لهذه الظاهرة «فأما الذين يشبعون فيمططون وعلامتها وأو ياء. وهذا تحكمه المشافهة وذلك قولك... ما منيك (عوضا عن ما منك). وأما الذين لا يشبعون فيختلسون اختلاسا».

وتقول تميم أيضاً (اكف الحمار شد عليه الا كاف) ويقول الحجازيون (أوكف).

وغير المد والقصر توجد هناك فروق عديدة بين المجموعتين اللغويتين الشماليتين التميمية والحجازية .

4 ـ راجع سيبويه ، جـ 2 ، ص 324 (طبع أوربا).

لغة الإشهار في وسائل الإعلام وتأثيرها في اللغة العربية الفصحى

أ. حفيظة يحياوي.

تغزو وسائل الإعلام ـ جزائرية كانت أو عالمية ـ خلال السنوات الأخيرة سلسلة ما يسمى بالإشهار. فكل مؤسسة اقتصادية أو اجتماعية تبذل قصارى جهودها من أجل الإشهار لمنتوجاتها في أغلب وسائل الإعلام، سعياً منها لجلب أكبر عدد ممكن من الزبائن. فيجتهد كاتب النص الإشهاري دائماً من أجل إضفاء لمسات سحرية جمالية عليه، سواء كان ذلك في الكلمات أم في الصور فهو يختار الكلمات المعبّرة التي تؤثر في الزبون باستخدامه أجمل العبارات التي تستهدف مباشرة قلوب من وجّه إليهم هذا الإشهار.

فماذا نعني بالإشهار؟ ومن يهتم بكتابته وصياغته حتى يخرج إلينا سجعاً أحياناً، ومزيجاً بين اللغات أحياناً أخرى؟ كيف يستطيع إقناع الزبائن بشراء سلعة ما، وما هي الوسائل التي يلجأ إليها من أجل ذلك؟

هل للإشهار تأثير على المستهلك بنفس الدرجة في جميع وسائل الإعلام أم أن درجة التأثير تختلف من وسيلة لأخرى؟ لماذا تتنوع الظواهر اللغوية في الإشهار، هل يقصدها كاتب النص أم أنّها تأتي عفوية؟

1ـ تحديد مفهوم الإشهار

أ ـ لغة: جاء في لسان العرب شهر: الشهرة ظهور الشيء في شُنْعَة حتى يشهر الناس، وفي الحديث: من لبس ثوب شهرة ألبسه الله ثوب مذلة...، الشهرة وضوح الأمر، وقد شهره يشهره شهراً وشهرة فاشتهر وشهّره تشهيراً، واشتهره فاشتهر،(...) والشهرة الفضيحة" [1].

وبهذا " ترتبط كلمة إشهار بالشهرة التي تعني الوضوح والاظهار والبيان والانتشار، وقد تعني الفضيحة أيضاً لأنّها تنشر بين الناس، وهو ما نلاحظه في وقتنا الحاضر إذ نجد أن كل من كلمة إشهار وكلمة تشهير فأشهره يشهره إشهاراً، بمعنى أظهر محاسنه، وبيّن إيجابياته ومنافعه وشهّر به تشهيراً بمعنى أظهر مساوئه وبيّن سلبياته ومضاره" [2].

ب ـ اصطلاحاً: أعطي الإشهار العديد من المفاهيم نذكر منها: "هومجموعة الطرق والوسائل الفنية المتبعة من قبل المنشآت التجارية

---

1 ـ ابن منظور، **لسان العرب**، ط1. بيروت: 1990, دار صادر،مج4, مادة شهر.

2 ـ بشير إبرير، **"قوة التواصل في الخطاب الإشهاري دراسة في ضوء اللسانيات التداولية"**، مجلة اللغة العربية. الجزائر: 2005, منشورات ثالة، ع13, ص227.

هي سبيل ترويج وتوسيع المبيعات، وفي سبيل الحصول والمحافظة على عملاء كثيرين"[3]. ويعرّفه دورندان Durandin على أنّه " وسيلة للتعريف بالمنشآت التجارية والمنتوجات لتسهيل بيع هذه الأخيرة"[4]. كما ذهب رالف الاسكندر إلى أنّ الإشهار هو "مجموعة الوسائل والتقنيات المخصصة لإعلام الجمهور، وترمي إلى التأثير على أكبر عدد من الزبائن"[5]، لفائدة المؤسسة، أو مجموعة من المؤسسات، هدفها تنمية وزيادة الطلب أمّا قاموس علم النفس فيعرّفه على أنّه" مجموع التقنيات المستعملة من طرف مؤسسة تجارية لجمع الزبائن، وتسهيل توزيع السلع المختلفة، ومع تطور علم النفس الجماعات ووسائل النشر (الصحف، الملصقات، الراديو، التلفزة...) فالإشهار عرف تطوراً معتبراً وتخصص المؤسسات الصناعية والتجارية حوالي5٪ من نسبة أعمالها للإشهار"[6].

ويعرّف أيضاً على " أنّه مختلف الوسائل المستعملة للتعريف بمؤسسة صناعية أو تجارية من أجل بيع منتوج ما"[7]، أمّا الدكتور بشير

3 ـ جوزيف عبود كبة، **محاضرات في علم النفس التجاري**، دط. سوريا:-1980, دار النشر حلب، ص183.

4 ـ Durandin ,**La publicité en tant qu'idéologie**. Paris: 1973,p767 .

5ـ محمد الناشد، **التسويق وإدارة المبيعات**، دط. سوريا: 1978, جامعة حلب، ص389.

6 ـ Sillamy. N, **Dictionnaire de psychologie**. France: 1991, éd larousse, p178.

7 ـ **Nouveau petit larousse**. Paris: 1969, Librairie larousse, p736.

إبرير فيعرّفه كما يلي: "الإشهار يعدّ صناعة إعلامية وثقافية في عصرنا هذا بأتمّ معنى الكلمة، إنّه ميدان جديد خصب بدأت تعرفه الدراسات اللسانية والأدبية في وطننا العربي منذ فترة وجيزة جدّاً كخطاب له خصوصياته السيميائية والتداولية التي تزوده بالطاقة على التواصل الفعّال مع المتلقي بغية تمرير محتوى خطابه وتحقيق منفعته باستعمال كل الوسائط المعرفية المتاحة له. ولذلك فهو خطاب ذو سيادة يرتبط بالسلطة والمال ويوظفها من أجل استمالة المتلقي، وإقناعه بالخدمة المعلن عنها، وبهذا فهو عند رجال المال والأعمال البوابة الذهبية لمراكمة المزيد من الرأسمال، ومضاعفة الأرباح مع هجرة الهاجس الاجتماعي المرتبط بالعدالة والمساواة"[8].

ومن مجمل هذه التعريفات يمكن تقديم تعريف عام وشامل للإشهار كما يلي: هو وسيلة رئيسة من ضمن الوسائل المختلفة التي تستخدم في التسويق، وهو نشاط يهدف إلى توفير المعلومات حول منتوج ما ومحاولة إقناع المشتري والتأثير فيه لشراء السلعة أو الخدمة المعروضة للبيع.

* **الإشهار والإعلان:** هناك من يرى اختلافاً بين الإشهار والإعلان، فالإشهار لغة تعرضنا له، أمّا الإعلان فقد جاء في لسان العرب: " علن:

8 ـ بشير إبرير، **قوة التواصل في الخطاب الإشهاري دراسة في ضوء اللسانيات التداولية**، ص 228/227.

العلان والمعالنة والإعلان: المجاهرة عن الأمر. يعلُن عُلوناً ويعلِن وعلِن يعلَنُ علناً وعلانية فيهما إذا شاع وظهر واعتلن وعلّنه وأعلنه وأعلن به، أنشد ثعلب:

حتى يَشُكّ وُشَاةٌ قَدْ رَمَوْكَ بنَا وَأَعْلنُوا بِكَ فِينَا أيَّ إعلانِ

وفي حديث المعالنة: تلك امرأة أعلنت، الإعلان في الأصل: إظهار الشيء والمراد به أنها كانت قد أظهرت الفاحشة[9]. "والإعلان يختلف عمّا يعرف بالإشهار Publicity، إذ أنّ الإشهار مثل الإعلان هو اتصال غَيْر شخصي عبر وسائل الإعلام هدفه الإقناع، ولكنّه غير مدفوع الثمن، فهو يظهر كجزء من المعلومات التحريرية في الصحافة كالأخبار والتعليقات وغيرها"[10]. فهما إذن اتصالان غير شخصيان هدفهما المشترك هو إقناع الزبائن وحثهم على الشراء، أمّا فيما يخص الثمن، فصاحب السلعة يدفع دائما من أجل الإشهار لها في مختلف وسائل الإعلام، أمّا الإعلان فيظهر أحياناً على شكل معلومات أو تعليقات لا يدفع ثمنها كالإعلان عن المسابقات الوطنية والخدمة الوطنية وغيرها، فهو يعلن عنها ولا يشهّر لها. ويقول الدكتور صالح بلعيد: "الإشهار نوع من الإعلان يحمل مضموناً إشهاريا دعائياً غرضه التأثير في المتلقي أيّاً كان نوعه، ومهمته تفعيل الطرف الثاني وحمله على التأثير غيره من

9ـ ابن منظور، **لسان العرب**، ط3. بيروت: 1994، دار صادر، مج13.

10ـ صالح خليل أبو أصبع، **الاتصال والإعلام في المجتمعات المعاصرة**، ط1. عمان: 1995، دار آرام للدراسات والنشر، ص201.

خلال وسائل الإشهار المتاحة" [11]، فالإشهار ليس هو الإعلان هو جزء منه، لأنّ الإعلان أوسع وأعم وأشمل من الإشهار.

2 ـ مبادئ الإشهار:

يقوم الإشهار على عدّة مبادئ تتلخص فيما يلي:

ـ " أن يكون للسلع المعلن عنها فائدة حقيقية للمستهلك حتى يكون الإشهار صادقاً.

ـ إتباع الأسلوب العملي في البحث والدراسة حول كل ما يتعلق بالمستهلك الذي يوجّه إليه الإشهار.

ـ تصميم الرسالة الإشهارية وإخراجها بشكل جيد وملفت لانتباه المشاهد أو المستمع.

ـ أن تحظى الرسالة الإشهارية بثقة قرائها أو مستمعيها أو مشاهديها لأنّ نجاحها يتوقف على هذه الثقة.

– الابتعاد ما أمكن عن كل ما هو مسيء للشعور العام للجماهير، كعرض أمور مخلّة بالأخلاق.

– كفاءة وسائل النشر المستخدمة في الإشهار، وتناسبها مع إمكانيات وثقافة الجمهور المرتقب لكي يتمكن من التأثير على أكبر عدد ممكن من الأفراد.

---

11 ـ صالح بلعيد، **دروس في اللسانيات التطبيقية**، دط. الجزائر، دار هومة، ص190.

ـ تجنب الإضرار بمصلحة الجمهور وصحته، بمعنى عدم تقديم سلع فاسدة أو ضارة، وعدم إيهام المرضى بحصولهم على الشفاء المؤكد بمجرد استخدامهم للسلعة المعروضة، وبالتالي منعهم من مراجعة الأطباء.

ـ الابتعاد عن الكذب والخداع و التضليل، والاعتماد على الصدق، وعلى مبدأ ذكر الحقيقة دائماً"[12].

وما يثبت صدق جملة المبادئ المذكورة- إن صح القول- هو فشل العديد من الحملات الإشهارية التي كانت تستعمل أسلوب التضليل والمراوغة لبيع السلع الرديئة. ولا تهمه في ذلك صحة الزبون وما سيعانيه من أثر هذا الغش مادياً أو معنوياً، بل ما يهمه هو ما سيجنيه من أموال لسلع لا تستحق حتى أن تعرض للبيع، أو أن تصنف ضمن السلع التي لها سمعة طيبة في السوق.

3ـ العناصر الرئيسة في الإشهار:

والمقصود بعناصر الإشهار "تلك الأجزاء المختلفة التي تتضمنها الرسالة الإشهارية، عندما تكون في صورتها النهائية، وجاهزة لعرضها بالوسيلة الإعلامية المناسبة لها"[13].وهذه العناصر يمكن تحديدها فيما يلي:

---

12 ـ بشير عباس العملاق، **الإعلان**، دط. القاهرة: 1998, الدار الفكر العربي، ص375.

13 ـ محمد جودت ناصر، **أصول الإدارة العامة**، ط1. القاهرة: 1976, المكتبة الأنجلو مصرية، ص213.

أ ـ العنوان: يعتبر العنوان من "العناصر الهامة في الإشهار، فهو يساهم بشكل كبير في نجاح أو فشل الرسالة الإشهارية، لذلك فإنّ واضع الإشهار يبحث بدقة وعناية عن العنوان، لأنّه يريد أن يدفع المشاهد أو القارئ لمشاهدة الإشهار وجذبه إليه"[14]. والعنوان الإشهاري أنواع كثيرة منها: "العنوان الآمر، مثل: جرّبه يوما تستخدمه دَوْماً، وهذا من أجل البحث على تنفيذ فعل الشراء، والعنوان المثير للشعور مثل: لا تدع الفرصة تفوتك، فالمشتري يتساءل عمّا وراء هذا العنوان بصفة خاصة، والإشهار بصفة عامة "[15]، فأوّل شيء يجذب الانتباه هو العنوان فإذا كان العنوان مناسباً وجذاباً ومميزاً، سيكون له تأثير كبير وإيجابي أيضاً، أمّا إذا كان العكس فحتماً سينفر منه الزبائن ولا يعيرونه أي أهمية، حتى وإن كانت السلعة ذات أهمية، فستكون ضحية للعنوان الذي لم يخدمها.

ب ـ الحجم والموضع: قد يعتقد معظمنا أن الحجم الكبير للإشهار يترك أثراً أعظم من الأثر الذي يتركه الحجم الصغير، لكن الواقع لا يؤكد دائماً هذا الادعاء، فللحجم حدوده، "ولقد جعلت هذه الناحية موضوعاً لعدد من الدراسات خاصة منها مقدار تأثير الحجم على المشاهد أو القارئ، كما يحتل الموضع الذي يخصص للإشهار من

14 ـ نعيم الرفاعي، **علم النفس في التجارة والصناعة**، دط. دمشق: 1964، المطبعة التعاونية، ص495.

15 ـ محمد الناشد، **تطبيق الإعلان**، ط1. بيروت: 1980، مكتبة الشرق، ص131.

لصحيفة أو المجلة مكانة خاصة في عناصر الإشهار، وتظهر هذه المكانة في المبالغ الإضافية التي تدفع مقابل الإشهار في أماكن خاصة كالغلاف في المجلة، والتنافس بين المعلنين للحصول على مكان جيّد لإشهاراتهم في الصحف والمجلات"[16]. فالحجم وموضع الصورة بالنسبة لمنتجي السلع عنصران هامان يجب مراعاتهما أثناء التخطيط للحملة الإشهارية، والتأكيد على الموضع خاصة في الصحف والمجلات لأنّه كلما كانت الصورة في الغلاف أو الصفحة الأولى كان لها صدى أكبر من الصفحات الوسطى.

ج - الرسوم والصور المساعدة: يتم التركيز بشكل كبير على هذا العنصر إذ أنّ " استخدام الصور والرسوم يمكّن من جذب انتباه المشتري عن طريق إثارة اهتمامه بسبب التشويق، وهو يؤدي إلى درجة عالية من التذكر والتصور للسلعة"[17]. كثيراً ما يلاحظ عند مراقبة حركة العين أمام الإشهار أنّ وقعها على الصور التي تتضمنها يسبق وقعها على الكلمات التي فيه، وهي في الوقت نفسه(أي الصور) أكثر وقعاً على نفسية المشاهد، ذلك أن استخدامها يقوي انتباه المشتري ويساعده على فهم مضمون الإشهار، وعلى تذكيره بشكل مستمر بالمنتوج، وحتى على تصديقه، لأنّه يشاهد السلعة واستخدامها بنوع من الواقعية.

16 ـ نعيم الرفاعي، **علم النفس في التجارة والصناعة**، ص474.

17 ـ محمد جودت ناصر، **أصول الإدارة العامة**، ص300/301.

د ـ الحركة والألوان: يحتل اللون مكانة هامة في مطالع الإشهار، فحسب ما نشاهده في أيامنا هذه، هناك صلة كبيرة بين زيادة البيع واستعمال الألوان، وبين زيادة اللون وزيادة عدد القراء والمتشاهدين، وهذا ما يفسّره الاهتمام المتزايد بالألوان في الإشهار، والاستعمال الذي يساهم به في التأثير على المشتري. فحسب محمد جودت ناصر: " فإلى جانب توضيح الرؤية، وتشكيك الإدراك، فهو يمتد إلى النواحي النفسية للمستهلك، لدرجة تثير لدية جوّاً انفعالياً ملائماً"[18]. ولهذا يجب على واضعي ومصممي الإشهار الأخذ بعين الاعتبار تناسق الألوان في الرسوم والصور بدقة متناهية، وإعطاء الصفة الجمالية لإشهاره من أجل إحداث التأثير المطلوب، وفي عنصر الحركة يقول الباحث نعيم الرفاعي: " حين نقارن الحركة والكون، فإننا نجد أن الحركة أدعى إلى تشغيل اهتمامنا، إنّها أقرب إلى معنى الحياة عن الكون، إنّ هذه الحقيقة تنتقل معنا في سيرنا في ميدان الإشهار"[19]. فمن هنا نفهم أن الحركة تؤدي وظيفة كبيرة جداً في جذب انتباه المشاهد نحو الإشهار والاحتفاظ به طويلاً نظراً للانطباع الكبير الذي تحدثه في نفسيته.

هـ ـ التباين والانفراد: يلجأ مخرج الإشهار أحياناً إلى " جمع المتناقضات مع بعضها ليظهر ما يريده، وليجعل الإشهار جذاباً، فإنّه قد

18 ـ المرجع نفسه، ص301.

19 ـ نعيم الرفاعي، **علم النفس في التجارة والصناعة**، ص482.

يفعل ذلك بالنسبة للصورة البصرية أو للإعلان الصوتي، فمثلاً صورة الماء النقي أمام صورة الماء المعكر، والجهاز الضخم المعقد إلى جانب الجهاز البسيط الصغير، فكثيراًما نقف ولو لوقت طويل أمام إشهار من هذا النوع. وكما جرت العادة فالمشاهد أو القارئ يجد أمامه عدداً من العناصر مع بعضها، ولكن رؤية النور وبسط محيط الظلام، يدعو إلى تأكيد مكانة العنصر الواحد، وله أثر كبير في جاذبية الإشهار، فعملية عزل عنصر في الإشهار أو جعله منفرداً تؤدي خدمة خاصة في دعوة المطالع أو المشاهد إلى النظر والتأمل والاهتمام"[20]. حيث تظهر للسلعة ميزة تنفرد بها عن غيرها من السلع، فالإشهار يساهم في جعلها مميزة، وأحياناً تجعل الزبون حائراً يفكر فيها، ويعطيها جانباً من اهتمامه، وبمجرد التفكير فيها فهو إذن ينوي شراءها، وبذلك يكون كاتب النص قد أصاب الهدف الذي تصبوا إليه بسبب هذا العنصر الهام.

و- الفكاهة والدعاية: يفضل كاتب النص الإشهاري الابتعاد عن الروتين إذ "يعتمد الإشهار أحياناً على الفكاهة في الأثر الذي يسعى لإحداثه في القارئ أو المشاهد، خاصة وأن ربط الفكاهة باسم المنتوج ونوعه يجعل أمر تذكّره سهلاً مع تذكر الفكاهة أو الدعاية. فالفكاهة ممتعة دائما، وهي تعرض الوجه المرح للحياة، ومن هنا يكون تأثيرها في سمعة الإنتاج حسن"[21]. خاصة وإذا استخدمت في الإشهار

20 ـ محمد جودت ناصر، **أصول الإدارة العامة**، ص233.

21 ـ نعيم الرفاعي، **علم النفس في التجارة والصناعة**، ص478.

شخصيات مشهورة، ويعرف بأنّها هزلية، فتجذب الزبون أكثر وتشدّه إليها، وتشاركه في تجريب السلعة، وتظهر له مزاياها، ليقتنع في الأخير بضرورة اقتنائها، والفضل يعود للروح المرحة والمضحكة التي تتميز بها هذه الشخصيات.

ز- الابتكار والجدّة: يصعب الاعتماد على الإشهار الذي يكرر القديم وما سبق ظهوره، أمّا الإشهار المبتكر أو المبدع فيؤدي دوراً كبيراً في تحقيق الغرض أو الهدف الذي يسعى إليه. "والإشهار الجديد لا يجلب الانتباه فحسب، ولكنّه يترك أثراً خاصاً في الذاكرة، ويساعد مستقبلاً على دفع الفرد إلى الشراء، خاصة وأن عنصر الابتكار أو التجديد يظهر خاصة في طريقة التعبير عن صفة خاصة من صفات المنتوج"[22] . فعلى كاتب النص أن يحاول دائماً التجديد سواء كان ذلك في الكلمات التي يوظفها، أو الصور والتقنيات التي يستعملها، لأنّ الزبون يحب الجديد دائماً، وينفر من تكرار الأشياء أو الكلمات أو الصور.

ح - الشدة أو النصاعة: تظهر مسألة الشدة أو النصاعة في معظم الأحيان في الإشهارات التي تستخدم الضوء أو الألوان "فالشدة المستعملة في الإشهار يمكن أن تكون وسيلة في جذب الانتباه إلى الإشهار، أو إلى مكان العرض، وشأن اللون هو شأن الضوء، فقد تكون

22 ـ سمير محمد حسين، **مداخل الإعلان**، ط1. القاهرة: 1973، دار النشر، ص18.

لشدة اللون(اللون الشديد القوة) أثر خاص في لفت المارة إليه، ومثل ذلك ينطبق على الصوت فلتحقيق الشدة المقبولة درجة كبيرة من التأثير لا يصل إليها الصوت الضعيف أو الخافت"[23]. فالضوء الشديد حتماً يجذب أنظار الزبائن إليه، ويساعد أيضاً على إقناعهم بمزايا السلعة بتسليط الأضواء عليها، وإظهارها على أنّها الأحسن بين السلع الأخرى، وبالتالي يصل إلى فعل الشراء والإقناع بأنّها السلعة التي يبحث عنها.

ط ـ الشعارات والإشارات المرافقة: كثيراً ما ينطوي الإشهار على شعار يطبقه المعلن ويربط بينه وبين الإنتاج، فحسب محمد جودت ناصر فإن " الشعار عبارة عن اختصار لفكرة الرسالة الإشهارية في جملة بسيطة وسهلة للحفظ والتذكر"[24]. وكثيراً ما يؤدي الشعار خدمة كبيرة في تحقيق هدف الإشهار، فهو" عامة عظيم التأثير لما فيه من اختصار في الكلمات ومن ارتباطات متنوعة بين الكلمات(كلمات الشعار)، وبين مناسبات حياتية مختلفة"[25]. ونفهم من ذلك أن الفرد قد يجد في كلمات الشعار ارتباطاً بأحداث عاشها في حياته، وبالتالي يكون تأثير هذه الكلمات قوياً في نفسيته، ذلك أن واضعي الإشهار يستخدمون في شعاراتهم ما يعيشه الفرد في حياته اليومية.

---

23 ـ حسن محمد خير الدين، **دراسات في أصول الإعلان**، ط1. القاهرة: دت، دار النشر، ص82.

24 ـ محمد جودت ناصر، **أصول الإدارة العامة**، ص211.

25 ـ نعيم الرفاعي، **علم النفس في التجارة والصناعة**، ص485.

هذه هي أهم العناصر التي يمكننا ذكرها، والتي تعتبر دعائم رئيسة تؤخذ بعين الاعتبار قبل كتابة أي نص إشهاري، فمن بين هذه العناصر هناك ما يُراعى في كتابة نص مقروء، وهناك أيضاً ما يراعى في كتابة نص مسموع أو مشاهد.

4 ـ وسائل الإشهار:

لكي يتمكن المستهلك من الإطلاع على ما هو متوفر في الأسواق يجتهد المنتج في اختيار الوسيلة الإشهارية المناسبة له لبلوغ هدفه، وجذب أكبر عدد ممكن من المستهلكين، ومن بين أهم تلك الوسائل نجد:

أ ـ الصحف: تعدّ الصحف من بين أولى الوسائل التي اعتمد عليها المنتجون في الإشهار لسلعهم، بعد أن كانت المناداة في الأسواق هي الوسيلة الوحيدة في العصور الماضية فأصبحت الصحف تتمتع بمكانة مهمة لما لها من صدى واسع بين القراء، وبانتشارها انتشر الإشهار حيث "يتمتع الإعلان في الجريدة بخصائص ينفرد بها دون غيره، وحيث إنّه إعلان جديد جِدَّة الخبر الذي نقرأه في الجريدة، فالمفروض أن يقدم السلع التي تباع اليوم أو غداً، بدليل أنّ بعض المعلنين لا يستخدمون الصحيفة اليومية إلاّ إذا كان لديهم ما يستحق أن يقال للقراء عن منتجاتهم"[26]. فأصبح تصفح المكان المخصص للإشهار

26 ـ منى الحديدي، سلوى إمام، **الإعلان: أسسه- وسائله- فنونه**، ط1. القاهرة: 2005, الدار المصرية اللبنانية ص105.

ضرورة لكل قارئ سواء كان ذلك من أجل الشراء أو لإرضاء فضوله. ومن أهم المزايا التي تتمتع بها الصحف نجد: " تغطية السوق أو اختراقه"[27]، لكن في مقابل المزايا نجد دائماً العيوب، فمن بين أهم نقاط ضعف الصحف كوسيلة إشهارية: " محدودية القدرة على التّوجه لجمهور محدد"[28]. أي ليس لها جمهور واحد ومحدد تتوجه إليه إذ نجد شخصاً ما يشتري الصحيفة اليوم وغداً لا يهتم بها، كما أنّها موجّهة فقط لجمهور المتعلمين، أمّا غير المتعلمين فلهم وسائل أخرى، لكن مع هذا يبقى لها جمهورها الخاص بها، والذي يفضلها على باقي الوسائل الإعلامية الإشهارية الأخرى والتي بلغت درجة كبيرة من التطّور.

ب ـ الإذاعة: تأتي الإذاعة في المرتبة الثانية بعد الصحف من حيث الاكتشاف، فبعد أن كان الإشهار مقتصراً على جمهور القراء فقط، أصبح له جمهور يسمعه عبر مختلف المحطات الإذاعية " إذ يتمتع الراديو منذ بدايته الأولى في العشرينات من القرن العشرين بمجموعة من الخصائص جعلت منه وسيلة إعلانية جذابة وفاعلة للمعلن تساعده على الوصول إلى تحقيق أهدافه بسرعة وعلى نطاق جماهيري واسع، وبشكل يختلف عمّا سبقه من وسائل إعلانية من صحف"[29]. إذ من بين أهم مزاياها:" المرونة، إذ يمكن تغيير الرسالة الإعلانية حتى

27 ـ المرجع نفسه، ص105.

28 ـ المرجع نفسه، ص107.

29 ـ المرجع نفسه، ص111.

الوقت الذي يسبق إذاعتها بقليل"[30]. ومن أهم عيوبها: " التناثر، فجمهور الإذاعة يتناثر بين العدد الهائل من المحطات المتنوعة، وهنا نجد أن على المستمع أن يختار من بين هذه المحطات وبالتالي فالمعلنون الذين يريدون الوصول إلى مساحة عريضة من الجمهور، عليهم الإعلان في عدد من المحطات في آن واحد، لتغطية السوق المحلي"[31]. وبهذا يمكن للإشهار أن يصل إلى عدد لا محدود من المستمعين، وفي مقابل ذلك على المنتج أن يدفع أكثر من أجل الوصول إليهم، وجلب انتباههم والتأثير فيهم، ودفعهم إلى شراء السلعة دون تفكير، ودون معرفة ما إذا كانت السلعة ذات فائدة أم لا.

ج ـ التلفزة: تعتبر من بين أهم الوسائل التي يعتمد عليها في الإشهار لمختلف السلع والخدمات "فهي تتمتع بمجموعة من الخصائص على مستوى التقنية، وظروف التعرض جعلت منها وسيلة إعلانية مؤثرة نافست بشدة ما سبقها من وسائل، خاصة على مستوى بعض المنتجات والخدمات"[32]. حيث نجد المنتج يتسابق مع منافسيه من منتجي السلع نفسها أو غيرها في شراء بعض الدقائق من أجل الإشهار في التلفزة، خاصة قبل نشرات الأخبار وبعدها، ونخص بالذكر نشرة الثامنة في التلفزة الجزائرية، لأنّ عامل الوقت مهم جداً، وهو من أهم العوامل

30 ـ منى الحديدي، سلوى إمام، **الإعلان: أسسه- وسائله- فنونه**، ص113.

31 ـ المرجع نفسه، ص114.

32 ـ المرجع نفسه، ص219.

التي يوليها مخرج الإشهار أهمية كبيرة، وعناية متميزة، لأنّه يعلم أنّ معظم المتتبعين لبرامج التلفزة يعتبرون نشرات الأخبار همزة وصل بينهم وبين العالم، يعرفون من خلالها كل ما يجري حولهم من أحداث وحروب وكوارث، وعلى آخر ما استجد في دنيا الاختراعات والسيارات وعلم الفضاء والطب والبحار...، ولأنّها تبقى الوسيلة الأكثر اعتماداً ورواجاً وجماهيرية، تهتم بها جميع الفئات من الأطفال والشباب والنساء والكهول "، إذ تشير كثير من دراسات التسويق وإيرادات المحطات التلفزيونية المتزايدة والمخصصات الإعلانية- التي يوجهها المعلنون في حملاتهم الإعلانية للتلفزيون- إلى الإقبال المتزايد على التلفزيون كوسيلة إعلانية"[33]. ومن أهم المزايا التي تميزها عن غيرها من الوسائل: "الجمع بين الصوت والصورة المتحركة، ممّا جعل منها وسيلة شارحة مقنعة، ومؤثرة لافتة للنظر والسمع والانتباه أكثر من غيرها من الوسائل التي تتعامل مع حاسة واحدة فقط"[34]. لكن هذا لا يعني أنّها وسيلة كاملة متكاملة لا تخلو من العيوب والنقائص بل هي كغيرها من وسائل الإعلام لها مزايا وعيوب، ومن بين عيوبها: " أنّها وسيلة إعلانية مكلفة، فرغم انخفاض التكلفة النسبية للبث الإعلاني، إلاّ أنّها تظل تكلفة مرتفعة يجب أن يدفعها المعلن"[35]. وبهذا تكون مقتصرة

33 ـ المرجع نفسه، ص219.

34 ـ المرجع نفسه، ص116.

35 ـ منى الحديدي، سلوى إمام، **الإعلان: أسسه ـ وسائله ـ فنونه**، ص118.

فقط على أصحاب الأموال الضخمة الذين يستطيعون الدفع مقابل الإشهار فيها، واختيار الوقت المناسب لهم، فكلما كان الإشهار قبل نشرة الثامنة في التلفزة الجزائرية مثلاً كانت التكلفة التي تدفع أكبر، وفي مقابل ذلك كانت الفائدة أيضاً أكبر.

وبهذا نكون قد تطرقنا لأهم الوسائل الإشهارية المعتمدة، والتي تعتبر الإشهار وسيلة هامة لا غِنى عنها، والتي تُدُّر أموالاً طائلة لهذه الوسائل وأصحابها. لذلك نجد الإشهار يحتل صفحات بأكملها في الصحف، ونجده في الإذاعة والتلفزة قبل مختلف البرامج وبعدها، ويأتيك دون سابق إنذار، وأنت تشاهد برنامجاً تلفزياً أو إذاعياً، فيأتي الفاصل الإشهاري فجأة بعد مشاهدة جزء من البرنامج، ثم تتم العودة لاستكمال البرنامج ثانية. فهذا هو حال الإشهار في وسائلنا الإعلامية إنّه أصبح يحتل مكانة حيوية في حياتنا، وضرورة اقتصادية لا يمكن الاستغناء عنها.

5ـ النص الإشهاري:

أ ـ تعريف: لكل إشهار نص يكون قد أعد له مسبقاً من متخصص في كتابة النصوص الإشهارية، إذ يجب أن يكون براقاً يحمل تعابير جميلة، وكلمات موحية يستطيع التأثير بها في الزبائن، فهو رسالة يستقبلونها ولهم حرية الاختيار في قبولها أو رفضها، وهو: " تركيب لغوي يتحدد وفقاً لمعايير اللغة التي ينتج بها، وهو تركيب جمالي لا يكتمل رسالة إلاّ

بمساعدة عدّة فنون أخرى تلابسه لترتسم جماليات الخطاب- وهو أشكال متعددة - متباينة ومتغيرة، كما أنّه من حيث بنيته أقرب إلى بنية النص الشفوي الذي يتم بناؤه وفقاً للهجة المتداولة غير المدونة التي تتجاوب مع متغيرات الأحداث اليومية والتطورات السريعة التي يعيشها اللاهجون بتلك اللهجة"[36]. حيث أنّ النص الإشهاري يجب أن يكون باللهجة التي يتحدث بها المجتمع ويفهمها جميع الأفراد، ويستعملونها في جميع مجالات الحياة، لا باللغة الرسمية التي تقتصر فقط على الطبقة المثقفة.

والنص الإشهازي يمكن أن يكون نصّاً تمثيلياً يجسّده مجموعة من الممثلين بواسطة المحاورة ويمكن أن يكون مثلاً شعبياً متداولاً أو فصيحاً:" كأن يعتمد على الأمثال الدارجة الشائعة المقنعة، التي تشيع بكثرة في الأوساط الشعبية، لأنّ المثل بمجرد مروره وسريانه يصبح أكثر قابلية للتصديق ولا يناقش، لأنّه حكمة السلف مغربلة، لا تحتاج إلى تأمل وتدبر. وقس على ذلك الأحجية(البوقالة) والفزورة والنادرة والخرافة"[37]. فالأحجية خاصة تتميز بخاصية بديعية جميلة وهي السجع في معظم الأحيان، نجد ذلك مثلاً في: " طلعت الدروج هفة بهفة، حليت بيبان الغرفة، شندالي شاعل ما يطفى"، وهي كلمات

36 ـ محمد عيلان، **"بنية النص الإشهاري"**، مجلة اللغة العربية. الجزائر:2002, منشورات ثالة، ع7, ص215.

37 ـ محمد عيلان، **بنية النص الإشهاري**، ص233.

جميلة معبّرة سريعة الحفظ والتصديق معاً بمجرد سماعها أو قراءتها، وهي في معظم الأحيان بشارة خير تستهوي قلوب الكثيرين خاصة النساء فهنّ يتفاءلن بها بسبب ما تحمله في طياتها من معاني كبيرة في كلمات موجزة. كما يمكن أن يكون النص الإشهاري أغنية شعبية أو فصيحة، وتعرف الأغنية الإشهارية بأنّها: "إيقاع بسيط خفيف له نظم أو وزن متكرر، وتنفرد الأغنية بسمات خاصة تميزها عن غيرها من الصيغ هذه السمات تتمثل في أنّ لكل أغنية لحناً موسيقياً خاصاً بها يميزها، كما أنّ الأغنية إمّا أن يؤديها صوت مفرد، ويسمى الأداء هنا بالأداء الفردي سواء قام به مطرب أو مطربة، أو تؤديها مجموعة، وهنا تسمى بالأداء الجماعي"[38]. وهذا النوع من النصوص أكثر انتشاراً من غيره فأحياناً تكون الأغنية إعادة لأغنية أخرى نالت شهرة كبيرة في أوساط المجتمع، وأحياناً أخرى تكون جديدة، لكن سرعان ما تصبح لها شهرة يردّدها الكبار والصغار.

كما يمكن أيضاً أن يكون النص الإشهاري نصّاً قصصياً كأن يلجأ كاتب النص إلى القصة الخرافية المتعارف عليها في تقاليد المجتمعات، أو يكون شعراً قديماً أو حديثا "فيتلفظ منه ما هو مشهور متداول ومحبب ترديده، وفي هذا الميدان تملك الشعوب رصيداً هائلاً من الكلمة الساحرة الحالمة التي تستثير العواطف والأشجان"[39].

---

38 ـ المرجع نفسه، ص234.

39 ـ منى الحديدي، سلوى إمام، **الإعلان: أسسه ـ وسائله ـ فنونه**، ص217.

فالشعر بأنواعه يثير مشاعر خاصة لدى الكثير من الفئات، وله تأثير كبير على قلوب محبّيه، واستعمال كاتب النص له يضمن على الأقل سماع أو قراءة هذا الإشهار، ومن ثم يأتي التفكير في اقتناء السلعة أو المنتوج المشهّر له.

ب ـ معارف كاتب النص الإشهاري: لكي يتمكن أي شخص من كتابة نص إشهاري، يجب أن يتوفر على مجموعة من الشروط نذكر منها:

* أن يجيد اللغة التي يشهّر بها إجادة تامة، وأن يمتلك أسرارها وخواصها التعبيرية بتلقائية كما يشترط أن يكون له إلمام بلهجة أو لهجات وطنه وخواصها في التعبير(الكلمة- الإشارة- الحركة- الإيحاءات المتباينة لها...)

* أن تكون له معرفة بثقافة مجتمعه المدرسية(الفصيحة) أو الشعبية(الفكرية والمادية) وأن يكون متشبعاً بهما.

* أن يكون على دراية بقيم المجتمع وتوجّهه الحضاري.

* أن يكون على دراية بعلم الإشارات أو العلامات السيميولوجية. La Sémiologie.

*أن يكون له إلمام بالتوجه الاقتصادي والسياسي والثقافي للدولة التي يشهّر فيها، وبمدى التأثير الاقتصادي والسياسي في اختلاف الأنظمة.

* أن يجيد لغتين أو ثلاثاً من اللغات العالمية إلى جانب لغته الأم، التي تظل بالنسبة إليه هوية ثقافية وسياسية وعلمية.

* أن تكون له دراية بعالم التجارة والمال، وخاصة ما يتعلق باقتصاد السوق économie de marché وعلاقة الدولة والجهات المشهرة، لأنّ الإشهار أداة اقتصاد السوق.

* أن يكون على دراية بنفسية المشاهد أو القارئ أو المستمع، وأن ينتج النص وفي ذهنه الخلفية التالية وهي: " إن غالبية المتلقين ممّن يوجه إليهم الخطاب لا يحللون ولا يناقشون (الموضوع) ولا يبحثون عن علاقات الأشياء، ولا مسبباتها. ولكنّهم في كثير من الحالات يقلدون ويستهلكون، يضاف إلى ذلك السعي من خلال النص إلى السيطرة على أفكار ومشاعر الجماهير بأنواعها "[40]. فكل هذه الشروط يجب أن تتوفر في أي كاتب للنص الإشهاري، سواء كان الإشهار في الوسائل المكتوبة أم السمعية أم السمعية البصرية، إذ ليس من المعقول أن يحاول أحدهم كتابة نص، وهو لا يعرف ثقافة المجتمع الذي يعيش فيه، وما هو متداول فيه من لهجات، كما أنّه من غير اللائق أيضاً أن يدّعي أي إنسان معرفته بخبايا النصوص الإشهارية وما يفضله المستمع أو القارئ أو المشاهد، وهو لا يدري عن نفسيته إلاّ الشيء القليل، فكاتب النص الإشهاري يجب أن يكون متمرّساً ومتمكناً من أجل التأثير في الزبائن، ومن ثَمَّ الاستجابة والشراء. إذ يعدّ كاتب النص أهم فرد في المجموعة التي تعمل على إخراج الإشهار، وطرحه في وسائل الإعلام المختلفة،

40 ـ محمد عيلان، **بنية النص الإشهاري**، ص217/218

فهو المسؤول الأول والأخير في جذب الزبائن، فلولاه ما كان هناك نص ولا إشهار، وما كان ترويج لمختلف السلع والخدمات، ولما كانت هناك منافسة بين المنتجين.

6. أهداف الإشهار:

يسعى كاتب النص الإشهاري أو مخرجه إلى تحقيق مجموعة من الأهداف نذكر منها:

أ ـ جذب الانتباه: " تعد عملية جذب انتباه المستهلك، والاحتفاظ به إحدى أهم الصعوبات التي تواجه عملية الاتصال الإعلاني، حيث يتعرض الفرد للعديد من الرسائل الإعلانية، خاصة مع ظاهرة الزحف الإعلاني على وسائل الاتصال المختلفة وتعاظم دور الإعلان في كافة المشروعات والبرامج والمؤسسات. كما يحاول أيضاً التأثير في سلوك ما بعد الشراء أو تثبيت ولاء المستهلك: حيث يهدف الإعلان أساساً إلى الاحتفاظ بالمستهلكين الحاليين، ومحاولة زيادة عددهم باستمرار". (41)

ب ـ " الزيادة المباشرة في المبيعات، وإثارة اهتمام أشخاص جدد، خلق الرغبة للشراء ودعم الثقة ببائع التجزئة، كما يهدف أساساً إلى خلق الروح المعنوية لدى العمال، وتذكير الناس دائماً بالإنتاج الخاص بالمؤسسة، وأيضاً مجابهة التحديات المنافسة". (42)

---

41 ـ منى الحديدي، سلوى إمام، **الإعلان: أسسه ـ وسائله ـ فنونه**، ص34/20.

42 ـ نعيم الرفاعي، **علم النفس في التجارة والصناعة**، ص456.

وتبقى هذه الأهداف مرتبطة دائماً بمدى مراعاة كاتب النص ومخرجه، وكل من يساهم من قريب أو بعيد في إعداده، في اختيار الكلمات التي ترافق الصورة إذا كانت في الصحف أو الحركة التمثيلية إذا كانت في الوسائل السمعية البصرية، فالكلمات التي تستعمل يجب أن تكون بسيطة، مفهومة، جميلة وموحية يفهمها الناس، وتشرك الجميع في المتعة.

7 ـ دراسة بعض الظواهر اللغوية المتكررة في الإشهار:

إن المتتبع لمختلف النماذج الإشهارية المكتوبة منها والمسموعة، أو المشاهدة يلاحظ ولأول وهلة تلك الميزات التي تنفرد بها عن غيرها، فنجد بعض الظواهر تكاد تكون غالبة على النص نذكر منها:

أ ـ الإيجاز: وهو في اللغة:" التقصير، يقال أوجز في كلامه إذا قصره، وكلام وجيز أي قصير وفي الاصطلاح: اندراج المعاني المتكاثرة تحت اللفظ القليل، أو هو التعبير عن المقصود بلفظ أقل من المتعارف، وافٍ بالمراد لفائدة"[43]. فظاهرة الإيجاز في الإشهار بصفة عامة (الصحف / الإذاعة والتلفزة) صفة غالبة، لأنّ كاتب النص يسعى دائماً لإيجاد صيغة يؤثر بها في المستهلك وتجذب انتباهه دون الإطالة فيها، إذ لو كانت الجمل المستعملة طويلة لتجاهلها الناس نظراً لضيق

43 ـ يوسف أبو العدوس، **البلاغة والأسلوبية، مقدمات عامة**، ط1. الأردن:1999, دار الأهلية للنشر والتوزيع ص105.

وقتهم، أو لحالة نفسية يمرون بها كالقلق أو التعب مثلاً. كما أنّ الإيجاز يجنب الكاتب الوقوع في آفة الحشو التي تتمثل" في زيادة العبارة عن الحاجة التبليغية وعن الكفاية الإفهامية"[44] لهذا وجب اختصار الإشهار، والاكتفاء بمجرد إشارات إليه، نقول في المثل:" اللبيب بالإشارة يفهم". فمثلاً عبارة " غير ألو ولا والو" لا تزيد عدد كلماتها عن خمس لكنّها أدّت المعنى المطلوب، إذ من السهل على سامعها أو قارئها حفظها وإدراك معناها، ومثل هذه العبارة كثير جدّاً، إذ نجد أن معظم الشركات التي تملك شبكات للهاتف النقال لها شعارات قصيرة نحو:

" موبيليس والكل يتكلم"، " نجمة اسمع النور لي فيك عالم جديد يناديك"، كلها عبارات موجزة لكنّها تحمل معاني كبيرة"، ولا يزال هذا الأسلوب من أفضل الأساليب الإعلانية، وخاصة إذا كان الإعلان موجهاً للقارئ العادي"[45]، أي أن أسلوب الإيجاز من أفضل الأساليب التي يعتمد عليها كاتب النص، كي لا يمل منه القارئ أو السامع أو المشاهد، وليسهل عليه فهم معنى الكلمات القليلة التي وردت فيه.

---

44 ـ بشير إبرير، **قوة التواصل في الخطاب الإشهاري**، دراسة في ضوء اللسانيات التداولية، ص236.

45 ـ علي رفاعة الأنصاري، **الإعلان نظريات وتطبيق**، ط1. القاهرة: 1959, دار الطباعة الحديثة، ص117.

ب ـ السجع: وهو "اتفاق الفاصلتين من النثر على حرف واحد، دون تقيد بالوزن، ويقابله القافية في الشعر، نحو قول سهيل بن عباد في المقامة اليمنية: لفظتني أحداث الزمن إلى مشارق اليمن(...) لا أعرف بها جليساً ولا أجد لي أنيساً"[46]. "أن الكلام الموقع أبقى في الأذن وأدوم في السمع. وذلك يقود إلى احتفاظ الذاكرة مدّة أطول، وقديماً كانت العرب تستعين بالمقامات المسجوعة لتعليم الصبية وتحفيظهم". [47]

وأمّا السجع فيعد الظاهرة المحببة لدى أغلب كتّاب النصوص الإشهارية، إذ يستعملونه في معظم تعابيرهم ولمختلف المنتوجات، فنلاحظ مثلاً هذه العبارة الخاصة بغسول الشعر "هيدأندشولدرز": القشرة مشكل يحيرك في عوض باش تبدل حوايجك، بدّل غير الشامبوا ديالك، رغم أنّها تعبير باللغة العربية الدارجة، إلاّ أنّها غاية في الجمال، تترك وقعاً جميلاً ورائعاً، إذ أن الإيقاع يجلب انتباه الزبائن، ويجعلهم يتمعنون في قراءة الإشهار وربّما إعادة قراءته عدّة مرات. وأيضاً عبارة: لشعر جذاب بلا عذاب استعملوا بارت بلاص الجديد. (Pert plus) وهذا يدخل في الزخرفة اللفظية من أجل شدّ انتباه المتتبعين من قراء أو مستمعين أو مشاهدين.

---

46 ـ راجي الأسمر، **علوم البلاغة**، ط1. بيروت: 1999, دار الجيل، ص186.

47 ـ وليد أحمد العناتي، **الإعلان التجاري**، مجلة التواصل. الجزائر: 2005, ع14, ص37.

ج ـ التعاقب اللغوي:

1 ـ في الصحف: من خلال دراستنا لبعض النماذج الإشهارية في بعض الصحف اليومية والأسبوعية لاحظنا أن هناك مزيجاً بين اللغة العربية الفصحى والعربية الدارجة، واللغة الفرنسية، فأحياناً تطغى اللغة العربية على الإشهار، ونجد اللغة الفرنسية تستعمل فقط لكتابة شعار الشركة أو علامة المنتوج كمثل الصور (01)الشبكة الجديدة للهاتف الثابت .Lacom كل الإشهار باللغة العربية ما عدا شعار الشركة Lacom فهو باللغة الفرنسية، ثم عكس هذه الظاهرة نجد الإشهار كله باللغة الفرنسية ماعدا شعار الشركة فهو باللغة العربية، وكلمة واحدة فقط بالعربية الدارجة، ففي الصورة رقم(02) لإشهار شركة نجمة لشبكة الهاتف النقال نجد الإشهار باللغة الفرنسية، وكلمة نجمة باللغة العربية وكلمة ؟ع بالعربية الدارجة وبخط كبير لإثارة انتباه القارئ.

ومن أهم الظواهر التي لاحظناها وجود إشهارات لبعض الشركات باللغة الفرنسية وانعدام تام للغة العربية، ففي الصورة(03) إشهار لشركة LG للهواتف النقالة، نرى هناك سحقاً وتغييباً للغة العربية، رغم أنّ الإشهار جاء في جريدة يومية ناطقة باللغة العربية، وهذا يعود ربّما إلى المفهوم الخاطئ الذي يحمله بعض الجزائريين حين يظنون أنّ اللغة الفرنسية هي لغة التقدم والازدهار والرفاهية والحياة الكريمة في حين أنّ لغتنا هي لغة التخلف، أو ربّما يعد هذا من مخلفات الاستعمار الفرنسي الذي حارب اللغة العربية طيلة فترة الاحتلال، وفي هذا الصدد قال

الرئيس عبد العزيز بوتفليقة في إحدى تدخلاته بولاية قسنطينة يوم 2006/04/17 الموافق لـ ربيع الأول 1427هـ: لقد ارتكب الاستعمار إبادة جماعية ضد هويتنا وتاريخنا ولغتنا وتقاليدنا(...) لم نعد نعرف إن كنا أمازيغ أو عرباً أو أوربيين أو فرنسيين.

في حين أنّ اللغة الإنجليزية، ومع أنّها لغة التقدم والتكنولوجيا العلمية والإنترنيت إلاّ أنّها شبه منعدمة في الإشهارات الجزائرية المكتوبة، اللهم فقط في بعض الشعارات أو التعابير القصيرة جداً مثلما نجده في الصورة رقم(04) لشركة Siemens للهاتف النقال أيضاً.

2 ـ في الإذاعة والتلفزة: تختلف اللغة المستعملة في الإشهارات الخاصة بالإذاعة والتلفزة بين عربية فصحى ودارجة وأمازيغية ولغة فرنسية وحتى إنجليزية، لأنّ الجمهور المستقبل لهذه الإشهارات متكون من مثقفين ورجال أعمال وغير متعلمين. والإشهار موجه أيضاً للنساء المتعلمات والماكثات في البيوت، لأنّ جمهور الإذاعة والتلفزة أوسع الجماهير، إلاّ أنّ التلفزة هي الأكثر رواجاً كونها تجمع بين الصوت والصورة، فالعربية الفصحى والدارجة نجدها في أغلب الإشهارات، أمّا الأمازيغية فتستعمل خاصة في المنتوجات والأطعمة التقليدية مثل: الكسكسي- الزرابي- القهوة... ولا نجدها بكثرة لأنّها لغة فئة معينة ولا يفهمها الجميع، أمّا اللغة الفرنسية فتكون مكتوبة أكثر، إذ نجد أنّ الصوت الذي نسمعه باللغة العربية أو الدارجة، أمّا المكتوب فهو باللغة الفرنسية مثل Après les 30 premières secondes, tarification à la seconde

ونجد النطق باللغة العربية: التسعيرة من الثانية الأولى. أمّا الإنجليزية فتستعمل أكثر في الإشهارات ذات الصيغة الغنائية، والخاصة في الغالب بالمنتوجات الأجنبية كالعطور، السيارات الهواتف النقالة... ونجدها أيضاً في بعض الشعارات الخاصة بالشركات المنتجة أو المنتوج نفسه. تعتبر هذه الأمور الظواهر الغالبة على النصوص الإشهارية، وهذا يعني أنّ هناك ظواهر أخرى، لكنّها تأتي بنسب أقل من التي ذكرناها كالجناس، الطباق، المقابلة...

8 ـ بعض خصائص الإشهار:

* يطغى على إشهارات الإذاعة والتلفزة طابع الغناء "وتعتبر هذه الصيغة من أكثر الصيغ شيوعاً واستخداماً، وهي تناسب السلع الشائعة الاستعمال"[48]، ويكون الغناء بمختلف اللغات من عربية فصحى ودارجة وأمازيغية، فرنسية وإنجليزية.

* **المبالغة:** هناك جانب كبير من المبالغة في معظم الإشهارات، إذ يعطي كاتب النص الإشهاري صفات ومزايا للسلعة لم تكن لتتوفر فيها، وهذا جانب سلبي يساعد على تضليل الزبائن"، فأمّا المبالغة وكذب الادعاء فهما عنصران شائعان في معظم الإعلانات على الرغم من إدراك المعلنين أنّ مثل هذه الادعاءات لا تجد طريقها معبداً إلى إقناع

48 ـ منى الحديدي، سلوى إمام، **الإعلان: أسسه ـ وسائله ـ فنونه**، ص217.

القارئ"[49]، ومن الادعاءات التي يستعملها المعلن للفت الانتباه وإثارة الاهتمام: "الوعد بجوائز مجانية أو أسعار مخفضة أو هدايا قيمة"[50]، مثل: إزيس الجديد سعر اقتصادي، كما يعمد أيضاً إلى" استخدام عبارات تبتغي كسب ثقة المستهلك واحترامه بادّعاء العلمية وتوصية المختصين بذلك"[51]، مثل سان سودينSensodyne معجون أسنان ينصح به الأطباء حول العالم.

ومن المظاهر المضرة بالمستهلك ظاهرة الغش، إذ يتم أحياناً الإشهار لسلع محلية تحت راية شركات أجنبية، ممّا يسبب ضرراً كبيراً للزبائن سواء كان مادياً أو معنوياً أو فيزيائياً، فمن بين هذه الإشهارات نجد إشهار لغسول الشعر هيدأندشولدرز أكياس، كان الإشهار في البداية على أنّه أحسن غسول ضد القشرة، ثم اكتشف فيما بعد أنّه من صنع محلي وفيه مواد سامة مضرّة بالشعر، بعد أن كان مصادق عليه من قِبل خبراء معاهد ألمانية، أصبح بين أيدي منتجين جزائريين ويحمل علامة شركة أجنبية، ليأتي بعد ذلك إشهار آخر يحذّر من استعماله، كما نرى ذلك في الصورة رقم(05).

كما نجد أيضاً ظهور شخصيات واحدة في سلع متنافسة ممّا يؤدي إلى حيرة المستهلك وتردده في شراء هذه السلع، أو عكوفه عنها يسبب هذا الخلط الذي تسببت فيه هذه الشخصيات.

---

49 ـ علي رفاعة الأنصاري، **الإعلان نظريات وتطبيق**، ص85.

50 ـ وليد أحمد العناتي، **الإعلان التجاري**، ص15.

51 ـ المرجع نفسه، ص20.

ومن أهم الخصائص أيضاً استخدام المرأة في الإشهار أكبر بكثير من استخدام الرجل، إذ أكدت بعض الدراسات أنّ المرأة يتم استخدامها في الإشهار" بشكل لا يعبّر عن دورها الحقيقي كأم وزوجة في الواقع فضلاً عن عدم ملاءمة هذا الاستخدام مع طبيعة السلعة المعلن عنها"[52]، فهو استعمال عشوائي حتى وإن كانت السلعة المشهر لها خاصة بالرجال فهم يفضلون استعمال المرأة، لأنّها أكثر جمالاً وجاذبية.

9. لغة الإشهار وتأثيرها في اللغة العربية الفصحى:

يقول الدكتور صالح بلعيد: " إنّ العربية الفصحى لها زحم وجداني تحرك فينا أسمى المشاعر، وإن التنوع في طبيعة المستمع أو المشاهد فرض تنوعاً في طبيعة اللسان الذي تقدم به المادة، وقد نجم عن ذلك تقاليد معينة في استخدام اللغة التي تقدم بها برامج الإشهار"[53]. فاللغة تتطور بتطور المجتمع والعربية الفصحى المستعملة اليوم ليست تلك المستعملة في زمن الجاحظ، وسهولة هذه اللغة ومرونتها وجمالها لم يمكنها من اقتحام مجال الإشهار والسيطرة عليه والتحكم في لغته،

---

52 ـ منى الحديدي، سلوى إمام، **الإعلان: وسائله ـ أسسه ـ فنونه**، ص288, عن عصام فرج، صورة المرأة في إعلانات التلفزيون المصري مع دراسة تحليلية لإعلانات التلفزيون المصري عام 1985, القاهرة: 1988 رسالة ماجستير غير منشورة، ص573.

53ـ صالح بلعيد، **دروس في اللسانيات التطبيقية**، ص191.

إذ نلاحظ أنّ العربية الدارجة واللغات الأجنبية طغت وبشكل كبير على الفصحى فيه، وبالتالي انتشرت هذه اللغات في المجتمع الجزائري خاصة في أوساط الشباب والنساء، لأنّ معظم الإشهار موجه لهاتين الفئتين. إذ يعد هذا الانتشار خطراً كبيراً على الفصحى، فهو يعيقها على الانتشار والتقدم والازدهار . فالإشهار إذن من الأخطار التي تواجه العربية الفصحى والدارجة معاً، لأنّها غالباً ما تستعمل الدارجة المختلطة بأسماء العلامات التجارية باللغة الأجنبية منطوقة أو مكتوبة، فيكون ذلك ترويجاً لا للسلعة فقط، وإنّما لألفاظ ومعاني اللغة الأجنبية.

ومهما يكن من الخطأ في استعمال اللغة الدارجة في الإشهار، فهو ليس كاستعمال اللغات الأجنبية، لأنّ الدارجة جزء من الفصحى، ذلك أنّها إذا صينت من الدخيل هي إثراء لها، ولذلك من الضروري حمايتها من" الدخيل المتغلب عليها لأنّها هي باب الإساءة للفصحى"[54]، ولأنّها تعد"الحظ المتقدم للدفاع عن الفصحى فإذا سقطت في وجه العولمة اللغوية، فإنّ الدفاع عن الفصحى سيضعف كثيراً إذا لم يسقط أيضاً" [55] فالعربية الدارجة هي حامية الفصحى واستعمالها في الإشهار أحسن بكثير من استعمال اللغات الأجنبية، فهي على الأقل

54 ـ أبو القاسم سعد الله، **"خطر الدخيل على الفصحى والعامية معاً"**، مجلة اللغة العربية. الجزائر: 2001 منشورات ثالة، ع4، ص26.

55 ـ المرجع نفسه، ص26.

لغة المجتمع وليست أجنبية يستعان بها في بادئ الأمر ثم تسيطر سيطرة شبه تامة خاصة على بعض الفئات التي ترى فيها حياة البذخ والرقي التي يعيشها المجتمع الغربي.

وأقول في الأخير إنّ الإشهار يعد من أنجع وسائل الترويج لمختلف السلع والخدمات منذ كانت التجارة والمقايضة، وأكثرها شيوعاً في مختلف وسائل الإعلام، وفي عصرنا هذا أصبح الإشهار للسلعة أو الخدمة ضرورة من ضروريات الحياة، من أجل التعرف على آخر ما استجد في الأسواق من سلع محلية وأجنبية، كما يمكن للزبائن اختيار ما يرغبون فيه وهم في بيوتهم يتصفحون مختلف الجرائد ويستمعون لمختلف المحطات الإذاعية أو يشاهدون إحدى المحطات التلفزية، إذ يصرّ الجميع على اقتناء السلع التي سبق لهم وأن شاهدوها أو سمعوا بها في مختلف وسائل الإعلام، ويرفضون السلع التي لم يسبق وأن تعرفوا عليها، فالإشهار يقوم بتقديم خدمات جليلة للمستهلك والمنتج صاحب السلعة ويخدم الوسيلة الإشهارية التي يتم الإشهار فيها، كما أنّه يخدم أيضاً الاقتصاد الوطني، ومن هنا نقول أنّه من الضروري الاهتمام أكثر بالإشهار والاعتناء به وإدراك نقائصه ومحاولة تحسينه ودفعه إلى الأمام.

قائمة المصادر والمراجع

المعاجم:

1 ـ ابن منظور، لسان العرب، ط1. بيروت: 1990, دار صادر،مج 4.

2 ـ ابن منظور، لسان العرب، ط3. بيروت: 1994, دار صادر، مج 13.

الكتب والمؤلفات:

1 ـ بشير عباس العملاق، الإعلان، دط. القاهرة: 1998, الدار الفكر العربي.

2 ـ جوزيف عبود كبة، محاضرات غي علم النفس التجاري، دط. سوريا: 1980, دار النشر حلب.

3 ـ حسن محمد خير الدين، دراسات في أصول الإعلان، ط1. القاهرة: دت، دار النشر.

4 ـ راجي الأسمر، علوم البلاغة، ط1. بيروت: 1999, دار الجيل.

5 ـ سمير محمد حسين، مداخل الإعلان، ط1. القاهرة: 1973, دار النشر، ص18.

6 ـ صالح بلعيد، دروس في اللسانيات التطبيقية، دط. الجزائر، دار هومة.

7 ـ صالح خليل أبو أصبع، الاتصال والإعلام في المجتمعات المعاصرة، ط1. عمان: 1995, دار آرام للدراسات والنشر.

8 ـ علي رفاعة الأنصاري، الإعلان نظريات وتطبيق، ط1. القاهرة: 1959, دار الطباعة الحديثة.

9 ـ محمد الناشد، التسويق وإدارة المبيعات، دط. سوريا: 1978, جامعة حلب.

10 ـ محمد الناشد، تطبيق الإعلان، ط1. بيروت: 1980, مكتبة الشرق.

11 ـ محمد جودت ناصر، أصول الإدارة العامة، ط1. القاهرة: 1976, المكتبة الأنجلو مصرية.

12 ـ منى الحديدي، سلوى إمام، الإعلان: أسسه- وسائله- فنونه، ط1. القاهرة:2005, الدار المصرية اللبنانية.

13 ـ نعيم الرفاعي، علم النفس في التجارة والصناعة، دط. دمشق: 1964, المطبعة التعاونية.

14 ـ يوسف أبو العدوس، البلاغة والأسلوبية، مقدمات عامة، ط1. الأردن: 1999, دار الأهلية للنشر والتوزيع.

المجلات:

1 ـ مجلة اللغة العربية. الجزائر:2001/2002/2005 منشورات ثالة، ع4/7/13 على التوالي.

2 ـ مجلة التواصل. الجزائر: 2005, ع14.

المصادر والمراجع باللغة الفرنسية

Augé Gillon, Nouveau petit larousse. Paris:1969, Librairie larousse.

Durandin, La publicité en tant qu'idéologie. Paris: 1973.

Sillamy. N, Dictionnaire de psychologie. Paris: 1991, éd Larousse

طبع بالمؤسسة الوطنية للفنون المطبعية
وحدة الرغاية، الجزائر
2006
Achevé d'Imprimer sur les Presses
ENAG, Réghaïa
- Algerie -
Bp. 75 Z.I. Réghaïa Tél. : 021 84 80 10/84 86 11

الإيداع القانوني : 1513–2005
ISBN : 1112-65-23